

أسرار النفس

تأليف الدكتور

أحمد زرار الأحراني

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

١٩٥١

على الدرب

النظر

السمع

الاتصال

الذوق

الطريق

السوق

ملحة

أعذب الحديث حديث النفس ، إلى النفس ، وعن النفس .
ولن يفرغ الحديث عنها في صفحة أو كتاب أو مجلدات . فهي السرا المكثون ،
واللغز الذي حارت فيه العتول ، على وفرة ما قال عنها الحكماء والمفكرون من
أقدم العصور حتى اليوم .

ولست أزعـم أنى قد كشفت الغطاء حتى برح عن أسرار النفس الخفاء . واسكنها
محاولة تضاف إلى محاولات السابقين الذين استفدت من اطلاعى على آرائهم ، أو هي
نظرة شخصية رأيت منها النفس الإنسانية كما بدت لى . وهل العلم إلا النظر ؟
ولذلك جاءت هذه الدراسات موسومة بطابع النزعة الشخصية ، والتجربة
التي حدثت لى خلال حياتى . ولم أتعـمد التأليف فيها عن قصيد ، فهي خطرات
تجاوبت فى نفسى ، نشأ بعضها عن القراءة ، وبعضها الآخر عن التأمل فى سيرة الناس ،
ثم أودعتها مقالات فى الصحف ، أو أحاديث على أمواج الأثير . وقد ضممتها
فى هذه الباقية ، ورأيت أنها قد تكشف عن بعض الأسرار .

ولما كانت هذه الفصول ثمرة التجربة الشخصية ، فإنها تمتاز بالصدق .
والإحساس الصادق أساس كل دراسة نفسية أصيلة ، لأنه يكشف عن الحق ،
ويصل إلى القلب

مارس ١٩٥١

النظر

لو أنَّ شخصاً من العهود الغابرة بُعث من جديد وأخذ يتجول في هذا العالم يطالع على أحواله ، كما حدث لأهل الكهف مثلاً ، لرأى اليوم عجباً . ومن أعجب العجب هؤلاء الناس الذين يحملون على وجوههم زجاجاً يحجب عيونهم ، تلك التي نسميها عويينات أو نظارات ؛ لقد مسح الإنسان شكله ، وشوه منظره ، وعدّل من الطبيعة الجميلة التي خلقه الله عليها .

ونحن نضع النظارات على أعيننا لتصحيح النظر ، وتقريب الأشياء البعيدة ، مما لا يدرك بالعين المجردة . ولقد ابتكر العلماء آلتين من أهم المخترعات الحديثة وأعظمهما أثراً في الاستعانة على الكشف ، هما التلسكوب والميكروسكوب ، الأولى لتقريب البعيد ، والثانية لتكبير الصغير ، فأدرك الإنسان كثيراً من الحقائق كان يظن جاهلاً إياها لولا هذه الآلات ، فكأنه أضاف إلى حواسه حاسة جديدة ، أو أعان الحواس على عملها .

وقد فطن أرسطو من أقدم العصور إلى أنَّ الحواس خمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، إلا أنَّ أعلاها قدراً هو البصر . والعين هي الآلة التي ركبها الله في الإنسان كي يرى الأشياء المحيطة به ويدركها ويعرفها ، فيتعرف إلى هذا العالم بمقتضى ما يرى ويدرك . فالعين هي النافذة التي نطل منها على العالم الخارجي . والحواس الأخرى كالأذن والأنف واللسان واليد نوافذ تطلعنا على صفات أخرى للأشياء غير التي تطلعنا عليها العين . فنحن لا نعرف من هذا العالم إلا المقدار الذي تسمح به هذه الحواس أو النوافذ . ولا ريب في أن الموجودات التي لا نراها ولا نعرفها في هذا العالم أكثر جداً مما نراه وندركه . فهذه الأشعة فوق البنفسجية ، والتي يعالج بها الأطباء أمراض الكساح وسقوط الشعر ، موجودة ولكننا لا نراها . فما أعظم جهل الإنسان ! بل أكثر من ذلك يخيل إليك أن

المشاهدات التي تراها هي الحقيقة ، وإنما هي مظاهر تخفي الحقيقة وراها . فأنت ترى نقطة الدم حراء اللون ، وإذا وضعتها تحت المجهر أو الميكروسكوب ، رأيت أنها مركبة من نقط حراء وبيضاء ، فما حقيقةها ؟ أهو اللون الأحمر أم المختلط ؟ ولذلك لم يثق العلماء بالحواس ، ولم تكن عندهم مصدر الحقيقة . وفي ذلك قال تعالى :
 « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم عيون يبصرون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ،

وللبصر منزلة عظيمة في حياة الإنسان وفي إدراكه الأشياء ، وقد فطن قدماء الفلاسفة إلى هذا الأمر فشبّه أفلاطون إدراك الحقائق المجردة والمعاني المعقولة بالبصر والضوء ، فقال : كما نحتاج في البصر بالمحسوسات إلى ضوء الشمس لأنها لا تدرك في الظلمة ، كذلك يحتاج العقل إلى ضوء ينير له الحق ، ذلك الضوء هو الخير . وجعلوا « البصر » خاصا بإدراك الأشياء العادية المحسوسة ، « والنظر » لإدراك الأمور المعقولة ، فقالوا النظر العقلي . تشبها له بالبصر المحسوس ، فهذا من ذاك . ولتعد إلى آلة البصر وهي العين ، فإنها من عجائب الخلق ، وليست وظيفتها مقصورة على الإدراك فقط ، بل لها وظائف أخرى كثيرة يعرفها العشاق بوجه خاص ، وتغني بها الشعراء . أذكروا أنا طالب باليكالوريا أنني لم أكن أميل إلى الشعر ولم أحفظ منه شيئا إلا هذين البيتين وهما :

إن العيون التي في طرفها حور
 قتلنا ثم لم يحين قتلنا
 يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له
 وهن أضعف خلق الله إنسانا

وسألتني الممتحن في الشفهي ماذا نحفظ ؟ فقلت له هذين البيتين ، فاستحى أن يسألتني في معناهما ، وأجازني وأمرني بالانصراف .
 والخور هو اشتداد البياض وسواد السواد ، وقد أصاب الشاعر في وصفها

بالقتل . الحق أن العين النافذة تصرع الناظر إليها ، وهذا هو سر التنويم المغناطيسى ، لأن الأصل فيه نظارة العين . فلما عجز المنومون لجأوا إلى استعمال العين المغناطيسية ، وهى كرة من الزجاج صغيرة يمسكها المنوم فى يده ، ويطلب من يريد تنويمه تحديق النظر فيها ، فإذا كان على استعداد للتأثر وقع فى النوم .

ولو أنك حذقت فى عين صاحبك لرأيت صورتك مرتسمة فى إنسان عينه . قالوا ، ولست أدرى مبالغ ما فى قولهم من صواب ، إن الصورة التى ترسم فى العين لا تزول إلا بعد فترة ، وإن الميت حين يغمض عينه تظل آخر صورة عالقة بها . وزعموا أن البوايس يستطيع من لخص عين القتيل أن يعرف القاتل ، ولو أنى أشك فى ذلك .

والعين آلة النفس على التحقيق ، بها تفصح عن دخالها ، وتكشف عن بواطنها وأسرارها ، فإذا كنت مسروراً ضحكت عينك ، ولذلك قالوا العين الضاحكة والبسامة . وإذا كنت حزيناً جمدت العين وغارت ، فإذا اشتد الألم فاضت العين بالدموع ، وإنما ذلك دليل على ألم النفس . ولستأ نجد الحواس الأخرى كالسمع والشم والذوق واللمس تعبر هذا التعبير ، أو تفصح هذا الإنصاح : فلا عرابية فى أن أقول : العين هى نافذة النفس التى تطل منها . ولذلك قالوا : تفضح العين ، لأنها تكشف المستور .

ولو أنك نظرت إلى شخص آخر فى عينيه نظراً طويلاً مستقيماً نافذاً لا طلمت على دخليته بغير أن يتحدث إليك ، ولهذا يستحى الجبان فيغض البصر ، وقد يتبجح الفاجر فيفتح عينه ليسترق النظر .

وأصنى العيون عيون الأطفال لأنهم لا يزالون على الطمر والعفاف لم تدنسهم أدران الحضارة والمدنية ، ولا تزال نفوسهم على سجيتهـا وعلى فطرتها الأولى من النقاء . ولقد كنت أنظر إلى عيني طفلى وهى رضية فأجد فى ذلك لذة كبيرة لأن اتصل بالنفس النقية البريئة . ومن غرائب الأطفال أنهم يطيلون التحديق وتكون نفارتهم فى الأشهر الثلاثة الأولى ثابتة لا تتحول . وهذا من وحى الطبيعة

التي تريد منهم إطالة النظر لكسب المعرفة .
وزعم الشعراء ، ولهم خيال جامح ، أن الطبيعة الجامدة لها عيون تنظر منها إلى
الإنسان . فقال ابن المعتز ، فيما أذكر ، يصف زهور الربيع :

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من الجين شاخصات
بأبصار هي الذهب السبيك

وهو تشبيه طريف .

وقد حث الله الإنسان على النظر بما أودعه فيه من عين وعقل . فقال تعالى
« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، . والمقصود
من النظر هنا ليس البصر المحسوس بل الانتقال من المحسوس إلى ما وراء ذلك ،
وإلى علة الوجود وسبب الأسباب . ومن الأدلة في الإسلام التي دعا الله إليها معرفته
سبحانه الدلائل الطبيعية ، أي النظر إلى المخلوقات لنتدبى منها إلى الخالق . وهذا ما فعله
المسلمون في أوج حضارتهم وسلطان عزمهم ومجدهم ، حيث نظر المفكرون في الطبيعة
والسكون فارتفع شأن العلم ، حتى إذا جاءت عصور التأخر نهى علماء الدين عن هذا
الضرب من النظر الطبيعي بحجة أنه يصرف عن الدين الصحيح ، وعدّوا المشتغلين
بالكيمياء سحرة مشعوذين وبالفلك كفاراً ملحدين . وأخذت أوربا في ذلك العهد
بمبدأ النظر إلى الطبيعة فأثمرت العلم الذي تقدم على أيديهم في العصر الحاضر .

وإننا لنأمل أن نأخذ في الشرق اليوم بذلك المبدأ الذي دعا إليه الإسلام ،
نعني النظر إلى الطبيعة ، فما كانت حراماً بشكل من الأشكال ، وأن نستفيد من العين
لا بالاطلاع وقراءة الكتب فقط بل بقراءة كتاب الطبيعة فهو الأصل الذي
يجب أن نرجع إليه ، لنصل كما فعل « دارون » ، إلى معرفة الله ومعرفة مخلوقاته .

السمع

السمع إحدى الحواس الخمس ، وترتيب هذه الحاسة يأتي بعد البصر ، ذهب إلى ذلك أرسطو في كتاب النفس ، ولا يزال العلماء يأخذون بذلك حتى اليوم . ولك أن تفتح أى كتاب فى علم النفس الحديث فتجد مؤلفه قد بدأ بالبصر ثم تبعه بالسمع . ونحن لا ننكر على البصر منزلته ، وأثره بوجه خاص فى المعرفة . فقد فطن قدماء الفلاسفة منذ عهد أفلاطون إلى الرؤية التى تحتاج إلى الضوء ، فجمعوا بين العلم والنور ، وقرنوا الجهل بالظلام . قالوا : والدليل على تقديم البصر على السمع أن أغلب الصور الواردة على الخيال بصرية ، وأن أغلب الناس بصريون لاسمعيون بل إن الإنسان فى أحلامه يشهد رؤيا . وقل أن يسمع كلاما ، إلى أدلة كثيرة يسوقونها فى تفضيل البصر على السمع .

والسمع أولى بالتقديم ، وأوجب بالتفضيل .

نقد وصف الله تعالى نفسه بالسمع والبصر ، وجمع بينهما فى أكثر من آية ، إلا أنه سبحانه وهو العليم بما خلق ، قدم السمع على البصر ، فقال جل شأنه : « إن الله سميع بصير ، وقال فى ترتيب خلق الأعضاء للإنسان : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، وقال أيضاً فى سورة « المؤمنون » : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . »

وقد رأينا الطفل فى بدء نشأته يدرك عن طريق السمع فهو يستجيب إلى النداء ، ويطرب للمناغاة ، ويلتفت إلى صوت أمه قبل أن يدرك الشكل بالبصر . ورأينا كثيرا من صنوف الحيوان تهتدى بسمعها قبل أن تهتدى ببصرها . ويقال إن صفار القطط والأرانب تظل بضعة أيام مغمضة العينين قبل أن تبصر ، ولكنها تسمع .

غير أن طبيعة الحضارة التى نعيش فيها جعلتنا نعتمد على البصر أكثر من اعتمادنا على السمع ، فكانت الكتابة أول سجل للحضارة ، والكتابة رسم يُقرأ

بالعين لا صوت يسمع بالأذن . وأخذت الكتب في الانتشار ، وأصبحت المراسلات سبيل التخاطب ، والصحف منبر الأخبار والسياسة ، فقلَّ الاعتماد على السمع .

ولكن الأصل في اللفظ أن يُنطق ، ولذا قيل : الإنسان حيوان ناطق ، ولم يقولوا : قارىء أو كاتب ، وجعلوا النطق دليلاً على التفكير . والأصل في الصحيفة المكتوبة أن تنلى حين تقرأ لا أن تكون قراءتها صامته تمر على حروفها بالعين . قال تعالى : رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . .

وأمرنا في الصلاة ألا نجهر بها ولا نخافت بل نبتغي بين ذلك سبيلاً .

وقد تقرأ الشيء فتفهمه وتعجب به ، حتى إذا سمعته من قائله ازداد تأثر به ، لأن الألفاظ وقد كانت مهيئة على الورق أصبحت تسرى فيها الحياة من حياة قائلها . ولذلك كان التعليم على سبيل الإلقاء أوفر في نفوس التلاميذ وأثبت في قلوبهم ، وكان المعلم الذي يلقي درسه وكأنه يتحدث أشد تأثيراً في السامعين من المعلم الذي يقرأ مذكرة أو يحفظ الدرس ويلقنه . ولذلك أيضاً كانت الخطابة أعلى مرتبة من الكتابة . وقد رأينا الأمم في حضارتها تعتمد على الخطباء في المحافل العامة ، وعلى المحدثين في المجالس الخاصة ، لأن المعول في ذلك كله على السمع .

والشعر وهو أرقى فنون الكتابة والآداب يشد ولا يتصفح ، وتاريخ الشعر يدل على ذلك ، فقد نشأ مع الموسيقى ، أو احتاجت الموسيقى إلى كلام يقال معها ويصاحبها فكان شعراً . وذكروا أن أول الشعر الجاهلي كان حذاء الإبل ، وكانت قصائد هوميروس في اليونان مما يتلوها الممشدون في مصاحبة القيثارة . وهذا شيء شبيه بما يفعله الشاعر الذي يتلو قصة أبو زيد الهلالي ، بمصاحبة الربابة . فإذا قرأت هذه القصة مدونة مكتوبة فلن تستمتع بها كما تسمعها من فم الشاعر .

والموسيقى تسمع وتبصر . فأنت تقرأ النوتة ، ، إذا كنت متعلماً هذا الفن ، ولكن قراءة النوتة الموسيقية لا تدل على شيء لأن الأصل في الموسيقى السماع .

ومن الملاحظ أن الأمم التي تعنى بالموسيقى تضرب بسهم عظيم في الحضارة ، وكان ذلك شأن الأمة الإسلامية في أوج حضارتها ، حتى لقد اشتغل الخلفاء أنفسهم بالموسيقى ، وكان لبعضهم فيها مذاهب جديدة . وابتدع أبو نصر الفارابي الفيلسوف علم الموسيقى ، وسمى لذلك « المعلم الثاني » من حيث إن أرسطو وهو المعلم الأول كان أول من وضع المنطق . فسمى الفارابي المعلم الثاني لأنه وضع التعاليم الصوفية . وتحكى عن الفارابي قصة مشهورة وهي أنه دخل على جماعة وهو في زي الصوفية الفقراء ومعه آلة موسيقية ، فأصلحها وعزف عليها فأطربهم ، ثم عزف لحنا آخر فأبكاهم ، ثم عزف لحنا ثالثا فأنامهم ، وتركهم في سباتهم وانصرف .

فإذا شئنا أن نأخذ بأسباب الحضارة فينبغي أن نعنى بالحديث ، والمحاضرة ، والخطابة ، والموسيقى . جملة القول أن يكون طريق التعليم الأذن أولا ، ثم العين ثانيا . ومن الدليل على الرغبة المتأصلة في النفس البشرية لاستماع الحديث ما يحدث من الأطفال والكبار حين يسترقون السمع ، وهم يجدون في ذلك لذة كبيرة . وكان الجن يسترقون السمع . قال تعالى : قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . إلى قوله تعالى : « ولما كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » . ذلك أن الجن كانوا يصعدون إلى السماء لاستراق السمع . وقد زعم كثير من الحكماء والفلاسفة أنهم يسمعون موسيقى السماء حين تتحرك السكواكب في أفلاكها . حكى ذلك فيثاغورس في الزمن القديم وقال إننا لا نسمع هذه الموسيقى لأن آذاننا تعودتها ، وحكى ذلك جيته في العصر الحديث . وحسن الاستماع فن من جملة آداب السلوك . وقد تكتبسب قلب محدثك بالإقبال عليه والإنصات إلى ما يقول ، وقد جرت عادة العامة والهمج أن يتكلموا جميعا في آن واحد فتختلط أصواتهم ولا يفهم أحد شيئا ، فهم أشبه بالحيوانات في الغابة ، أو العصافير على الشجر . وقد رأينا الفرنجة يتأدبون في سماع المحاضرات العلمية ، أو عند سماع الموسيقى والمغنين ، ولست تجد ذلك في مجالس الشرق ، وهذا من فساد الذوق وقلة الأدب .

فإذا عرفنا ما للسمع من خطر عظيم ، فلا ينبغي أن نضيعه في الاستماع إلى الثثرة الفارغة أو الأدب الرخيص أو الموسيقى المنحطة ، بل يجب أن نعي بتهديب الأذن فلا نسمع إلا الحديث المفيد ، والموسيقى الراقية ، وتستطيع الإذاعة أن تفيد الشعب من هذا الطريق فائدة عظيمة .

الاتصال

قال : كيف تزعم أن السمع أولى من البصر ، فتخالف المعروف ، وتخرج على الإجماع ؟ قلنا : ليس في الخروج على التقليد جريمة ، إذا كان الحق مطلبنا ، وقديما ظل العالم أسير أفكار أرسطو عشرين قرنا من الزمان ، فتأخر ولم يتقدم ، ولك أن تفرع الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان . قال : ذكرت قول الله تعالى في تقديم السمع والبصر ، وهذا صحيح في ترتيب النشوء ، ولا يدل ذلك على التفضيل ، كما أن اللمس أقدم من سائر الحواس ، وهو ولا ريب أولها ظهورا ، ولا يخلو عنه أى حيوان . ومع ذلك فليس اللمس فى أهمية السمع أو البصر .

قلنا : إن قدم السمع فى الظهور ليس دليلا على أنه أدنى مرتبة . ونحن إنما ننظر إلى المسألة من جهة المعرفة ، ومن طريق الوصول إلى الحقيقة .

قال : لقد درجنا على أن البصر هو سبيل المعرفة بالاشياء الخارجية ، فالعين تسجل ماتراه من الاشياء كأنها الفوتوغرافيا . وأنت حين تفتح عينيك تقع على آلاف الاشياء دفعة واحدة ، وإذا أغمضتهما لم تحس بشئ ، اللهم إلا إذا خرج من الشئ صوت ينبهك إلى وجوده ، ويكون سبيلا إلى معرفتك به . فلو هدأت الأصوات ما عرفت شيئا على الإطلاق .

قلنا : هذا صحيح ، نحن نعرف الشئ بهيئته حين تقع العين عليه فتبصره ، وبصوته حين نسمعه . ولكنى أذهب إلى أن البصر لا يعرفنا إلا الظاهر ، أما

السمع فينفذ بنا إلى الباطن ، والباطن هو الجوهر ، وهو الحقيقة التي شق الحسكاه في البحث عنها ، أو هي حجر الفلاسفة .

قال : زدني بما تذكر بيانا .

قلنا : الكائنات صنفان ، جماد وحى ، والحى ثلاثة أنواع نبات وحيوان وإنسان . ونحن نعرف هذه الأصناف كلها بطريق الحواس ، وأولها فى النشوء اللمس ، ولكن اللمس لا يعرفنا منها إلا صفة الملاسة والخشونة والصلابة والليونة ، فإذا مررنا باليد عليها عرفنا شكلها أو هيئتها ، وليس ذلك فى الواقع عن طريق اللمس بل عن طريق البصر الذى أدركنا به الأشكال من قبل . ومع ذلك فالجماد يظل ميتا حتى ينطق ، فإذا نطق حدثنا عن باطنه ، وذلك حين يخرج الصوت . وآية ذلك أنك تنظر إلى قطعة الذهب أو الفضة من النقود فلا تميز الصحيح من الزائف حتى ترنها وتسمع صوتها ، فلا تعود تتدعك بظاهرها .

أما الأحياء فلا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع .

والحياة مرتبة أعلى فى الوجود من مرتبة الجماد .

فقد تنظر إلى العصفور المصنوع على هيئة الطير فتعتقد أنه عصفور حقيقى ، لأنك تدركه بالبصر فقط ، فإذا زقزق ونطق ، وسمعت صوته ، عرفت أنه حى ، وتحققت من وجوده .

وقد عاصرنا السينما فى عهدين : الأول حين كانت صامتة ، ثم حين أصبحت ناطقة ، فلما نطقت أصبحت أقرب إلى الحياة ، وإلى الحقيقة ، ولما كانت صامتة كانت أدنى إلى الموت .

وإذا نظرت إلى الماء وكان راكدا لم تعرف إلا صفحته ، فإذا كان جاريا رأيت أمواجه وأبصرت تلاحقها وجريانها . ولكنك حين تسمع خرير المياه تحس بشيء آخر يمتاز فى وجوده وحقيقته عن مجرد النظر إلى صفحة الماء .

ثم إن الجماد لا يحفل بك ، ولا يكشف عن جوهر نفسه ، لأنك تدركه من

الظاهر ولا يستجيب إليك . أما الحيوان فإنه كلما ارتقى في سلم التقدم ، كشف عن حقيقة الباطنة وحدثك عنها ، واستجاب لكل طارق . ألا ترى إلى القطة في الدار تنادى صغارها فتفهم عن أمها وتسارع إلى تلبية النداء . فالأصوات سبيل اتصال الحيوان بالحيوان ، وليست الرؤية كذلك .

قال : ولسكننا حين نبصر ، يصدر عن الشيء شعاع أو أشعة تقع على العين وتنعكس في صفحة المخ ثم ندركها آخر الأمر ، فهذا سبيل الاتصال بالأشياء ، نعى الشعاع .

قلنا : ولسكن الشعاع لا يعرفنا إلا الظاهر ، أما الصوت فإنه ينفذ من الأذن ويذهب إلى القلب .

وقد حدثتك ، عن مرتبة الحيوان ، ورأيت أنها أعلى من الجماد . أما مرتبة الإنسان فهي أشد علواً ، وذلك لما يمتاز به من العقل والتمييز وإدراك المعاني . وكيف ندرك المعاني بغير ألفاظ ، وكيف ندرك الألفاظ بغير سمع . ولقد ذهب القدماء إلى أن الإنسان حين يفكر بينه وبين نفسه ، إنما يفكر بالكلام حتى لا كأنه يحدث نفسه ، وكثيراً ما زى شخصاً يسير في الطريق وهو يتمتم ، وقد يخرج عن التمتة إلى الكلام المسموع حتى نظن به الجنون . فإن قالوا لك : هذا إنسان نريد منك أن تتعرف إليه ، وأن تتصل به ، أيكني في ذلك أن تنظر إليه ، أم تستمع إلى حديثه ؟ ولا نزاع في أن الاستماع إليه أشد اتصالاً بحقيقته . ولو قنعت بالنظر ، لكان التمثال كافياً ، ولسكننا لسنا عباد تماثيل وأصنام .

ويبدو أن الأطفال أسلم منا فطرة ، فهم يركبون العصا ويتخيلونها حصاناً فيحدثون إليها ويستنطقونها ، لأن الحديث أقرب إلى الاتصال بالأشياء . وذهب المحبون مذاهب شتى في غرامهم ، ولسكنهم لم يقنعوا من المحبوبة بمجرد النظر ، بل طعموا في الحديث ، لأنه يقرب القلب من القلب ، وهو أول سبيل الاتصال الروحي .

ثم أليس الله هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود ، طلب الناس في كل زمان معرفته ، والاتصال به ، فعرفه الأنبياء والرسل والأولياء الصالحون عن طريق السمع ، وسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله ، فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، وعرفه موسى بالسمع قال تعالى : وكلم الله موسى تكليماً ، والوحي يكون عن طريق السمع في أغلب الأحيان .

جملة القول إنَّ طريق الاتصال بالأشياء ، وبالإنسان على وجه الخصوص ، هو عن طريق السمع لا عن طريق البصر ، وهذا الطريق هو الذي ينفذ إلى لب الحقيقة ويبلغ الجوهر ، أما البصر فيقف عند الظاهر ولا يصل إلى الباطن .

الذوق

الذوق إحدى الحواس الخمس المعروفة وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس . وآلة الذوق اللسان ، كما أن آلة البصر العين ، والسمع الأذن .

وقد فطن القدماء من الحكماء منذ عهد أرسطو إلى الصلة بين الذوق والشم ، ولكن المباحث الأخيرة بينت أن معظم المطعومات التي نتذوقها مرجعها إلى الشم ، ذلك أننا إذا أصبنا بالزكام أو سددنا فتحتي الأنف لم نعرف حقيقة الأشياء التي توضع على اللسان ، وإن نستطيع أن نميز عصير البرتقال مثلاً فنقول إنه شيء حادق ، فإذا سلكت منافذ الأنف ميزنا عصير البرتقال وغيره .

وقد دلت التجربة على أننا نميز باللسان أربع صفات . الحلو والمر والمالح والحامض ، أو ما يركب منها . وتغير الحرارة من طعم الأشياء ، وكنا نعرف كيف يكون طعم القهوة أو الشاي أو الكاكاو وهي ساخنة ، وكيف يكون طعمها وهي باردة ، إنها تختلف في الطعم اختلافاً عظيماً . والامر كذلك في الأشياء التي يطول مضغها .

ويعتاد اللسان الطعم بحيث لا يميز طعم أي شيء آخر ، وبخاصة إذا كان طعم الشيء الأول قوياً مثل الأشياء الحامضة .

وتختلف أذواق الناس في طعامهم اختلافاً كبيراً من فرد إلى فرد ، ومن أمة إلى أمة ، ومن جماعة إلى جماعة ، ويبدو أن للعادة تأثيراً في ذلك . وقد سمعنا عن قوم يأكلون الجراد أو الفيران ويستطيون طعامها .

ومن الأطباق المشهورة في مرسيليا ضفادع البحر . وكلنا في مصر ، أعني أهل المدن ، نعاف هذه الأطعمة ، غير أننا لصلتنا الشديدة بأوروبا أصبحنا نألف أطعمتهم ونقبل عليها . وقد أكلت الطعام الصيني في أحد المطاعم الصينية في باريس قبل الحرب ، فرأيت قائمة الطعام تحتوي أربعين صنفاً ، ولسكنها كلها واحدة في نظري وفي نظر غيري من المصريين ، لأنها عبارة عن طبق قطعوا فيه اللحم قطعاً صغيرة وكذلك الخضر ومزجوه بالتوابل الحريفة ، بحيث لا تستطيع تمييز صنف عن آخر ، كما يصعب تمييز وجوههم أيضاً .

وليس لنا أن نقول إن طعامنا أفضل من طعام آخر ، لأن مرجع ذلك إلى الذوق الشخصي .

فالذوق شخصي ، ليس له ميزان إلا إعجاب صاحبه .

ومع ذلك فقد أدخلوا على المطاعم أموراً لا يأكلها المرء ، ولسكنها تفيد في تقديره لها ، أو كما يقال تفتح الشهية ، وهي تزيين الأطباق بالزهور والورق الأخضر ، بحيث تقدم قطعة اللحم في إطار من المنظر الجميل .

وليس اختلاف الطهاة في مقدرتهم على صنع الطعام بمقدار براعتهم في حسن التقديم والترتيب . وإذا تتبعنا الإنسان في بداوته وحضارته رأينا مائدة البدائي فطرية يأتهم فيها الفريسة دون إعداد أو تجهيز ، ورأينا مائدة المتحضرين تحفل بالشموع والورود والموسيقى . وتعقدت آداب المائدة ، وأصبح الذوق متصلاً بهذه الزينة أكثر من اتصاله بطعم المأكولات .

ثم أطلقوا الذوق على المعنويات لا على المحسوسات .

والأصل في الذوق الحسي كما ذكرنا أنه يميز بين الحلو والمر والملح والحامض

غير أن إجماع الناس على استملاح الحلو والإقبال عليه واستجادته ، ولذلك وصفوا صاحب الذوق بالحلاوة والعذوبة .

وأصبح الذوق يطلق على استحسان الجميل واستهجان القبيح .

وقد اصططلحت سائر اللغات على أن الآلة المميزة للجمال والقبح هي الذوق ، لأن الأصل فيه هو هذا التعبير الشخصي .

ولك أن تقول : ولكن اللسان واحد في جميع الناس ، ويستطيع الإنسان بالفطرة إذا كان صحيحاً غير مريض ببعض الأشياء ، وتعاف نفسه أشياء أخرى ، فالذوق بالفطرة ميزان صحيح ، ولا يختل هذا الميزان إلا إذا شذت الطبيعة ، ولذلك قالوا : الذوق السليم . وهو موجود في أغلب الناس في أصل الفطرة .

غير أن حياة الإنسان قد ابتعدت عن الطبيعة ابتعاداً شديداً بحيث أصبح من العسير بيان هذه الفطرة الأولى .

والطبيعة لا تعرف ذوقاً حسناً وآخر قبيحاً ، لأن الحسن والقبيح ، كالخير والشر من الأمور التقديرية ، والطبيعة لاتزن ، ولا تقدر ، ولا تشعر ولا تعقل . إننا نعجب بحفيف الأشجار ، وغناء الطيـار ، وخرير المياه ، وغروب الشمس : وما إلى ذلك ، فهل يطرب الشجر لحفيفه ، أو الطير لغنائه ، أو الماء لخربه ، أو الشمس لغروبها . أو هل تفضل الشجرة أن تكون بجوار جدول من أن تكون إلى جانب صخرة ، وهل تتذوق الشجرة طعم الغروب كما نفعل نحن .

لا بد في الذوق من الشعور ، والجماد لا يشعر .

والحيوان يشعر ولكنه لا يتذوق .

فإن قال قائل : ولسكننا نرى الحيوان يقبل على طعام ويغاف طعاماً آخر ، وقد يأبى الكلب الذي تعود شرب اللبن أن يأكل شيئاً آخر حتى لو كان جائعاً . وليس هذا بالذوق الذي نمنيه بل هو إلف واعتياد ، أو باصطلاح علماء النفس فعل منعكس متعلق بشرط ، مما هو معروف مشهور . والذوق الإنساني ينشأ كذلك مع الإلف

والاعتیاد ، فأداب التجه والمائدة ، والزى ، وترتيب الدور ، وسائر أعمال الناس وسلوكهم آلية تصدر عن المرء وكأنها صادرة عن الطبع ، حتى لقد قيل : العادة طبيعة ثانية . فأنت تتذوق الموسيقى الأوربية بعد سماعها مرات ومرات حتى تألفها . وفى الإنسان حنين إلى الماضى ، وركون إلى القديم ، يطمئن له فیرتاح إليه . ولذلك كان أحد العناصر المسكونة للذوق هو التقاليد .

وفى الإنسان رغبة إلى الجديد ، لأنه يبعث على الفتنة ، ويشير النفس ، ويكون أليق بالظروف الطارئة من القديم البالى . فالذوق يتألف من القديم ومن الجديد ، كالحياة نفسها التى تجمع بين الماضى والحاضر .

ويتألف الذوق من تجارب الحياة أكثر مما يتألف من الثقافة النظرية والاطلاع . ومن أقوال العامة : إن الذوق شيء لا يوجد فى السكتب ، والمقصود من ذلك أنه يكتسب من الخبرة العملية ، فأنت لا تتذوق الشعر ، إلا إذا سمعت مئات القصائد ورويت آلاف الآيات ، فتنشأ فى نفسك ملكة الشعر . واشتهر كل أمة بذوق خاص ، فإيطاليا مشهورة بالفن والرسم والنحت ، فینشأ الإيطالى يتذوق التصوير دون أن يعرف العلة فى ذلك ، أو كيف اكتسب هذا الذوق . ورأينا فى باريس كيف تدسق الزهور فى البساتين العامة بحيث تألف منها ألوان فى غاية الإبداع ، وهذا شيء لا تجده فى غير باريس لأن أهلها نشأوا على ذلك ، إلى جانب شهرتهم فى أزياء النساء ومسارح الليل وملامى الشباب . وقد ورثوا هذا كله عن حضارتهم قبل الثورة الفرنسية وكانت أعلى الحضارات ، مما يؤكد ما ذكرناه من أن الذوق ينحدر مع التقاليد .

أما الأمة التى تخلو من الماضى ومن التقاليد فلا ذوق لها ، مثل أمريكا ، أعنى الولايات المتحدة ، فأهلها على ثرائهم ووفرة دولاراتهم يتصرفون كأغنياء الحرب . وقد رأينا جنودهم فى مصر يجلس الواحد منهم فى المترو وقد رفع رجله فى وجه جليسه .

وفى مصر - مع الأسف - لا ذوق يقوم على التقاليد ، لأننا فى عصر خرجنا

فيه على التقاليد ، ولا ذوق يستند إلى الجديد ، لأن الشباب يجرى على الفوضى . وكل شيء عندنا يخلو من الذوق ، وفي كل خطوة نخطوها في الشارع نصطدم بما يؤذى الشعور . ولو راعينا في أعمالنا الذوق ، وتقدير الجليل ، وإيثار اللائق ، لوصلنا إلى ما نريد من حضارة من أيسر سبيل .

الطريق

ألم تفضل الطريق يوماً ما وبخاصة في عهد الطفولة ؟ كل منا يذكر ولا ريب ذلك الماضي الذي أخذ يستقل بالخروج فيه ، ويتأمل كيف يتصرف كي يصل إلى المكان الذي يريده ، وكيف يعود منه إلى داره .

ومع ذلك فقد تعلم الطفل السير في الطريق بعد أن أرشد أهله ، وسلمه مرات عديدة ، واستقرت في ذهنه النواصي والأمارات الدالة على الأمانة والبقاء . ولكن العجيب هو سلوك الطريق لأول مرة ، والاهتداء إلى الغاية بغير تعلم سابق . ولعلنا إذا رجعنا إلى الحيوان نشاهد كيف يفعل يعرفنا سرّاً من أسرار السلوك . وأنت تدري أن صنفاً من أصناف الحيوان هو الكلب بوجه خاص يذهب مع صاحبه إلى مسافات بعيدة ومع ذلك يعود إلى الدار . قالوا : إن حاسة الشم في الكلب من القوة بحيث تجعله في إياه يدرك الطريق الذي سار فيه من قبل . فالمرجع في ذهاب الكلب وإياه خلال الطريق هو حاسة الشم لا العقل أو الذكاء . ولقد حكى لي أحد الأصدقاء أن كلباً ضالاً تعاق به فعطف عليه وأمكنه معه ، ثم ركب وإياه سيارة يوماً من الأيام ، ولم يستطع الكلب أن يستقر في مكانه من السيارة فقفز منها على أن يعود إليها ، ثم انطلقت السيارة وحل الكلب لأنه كان في مكان بعيد . قال صديقي : فلما عدت إلى الدار إذا بي أجد الكلب قد سبقني إليها ، فخرت في تعليل ذلك .

وأعجب من ذلك وأغرب الحمام الزاجل ، وكانوا يطلقونه في قديم الزمان محملاً

بالرسائل في أوقات الحروب ، فكيف يهتدى إلى الطريق ؟ وهذا هو شأن الطيور المهاجرة كالسهم . فلما حار العلماء في تعليل هذه الظواهر الغريبة من أمر الحيوان ، قالوا إنها الفطرة أو الغريزة ، وقالوا إن في الحيوان حاسة تسمى حاسة الاتجاه .

ولكن الأمر في الإنسان أشد تعقيدا لأنه لا يرجع إلى الغريزة بل إلى العقل الذى يهديه سبيل السير في الطريق الموصل إلى الغايات ، ويضله إذا غاب منه العقل والصواب . ونحتاج إلى العقل بوجه خاص إذا صادفتنا عقبة في الطريق نريد أن نذلها أو نتخطاها أو نلف حولها .

ومن هنا تعلم الإنسان اجتياز العقبات ، كما تعلم اللف ، والدوران .

أما الحيوان فإنه يعجز عن اجتياز العقبات ، بل لا يدركها

قيل : جرب بعض علماء النفس تجربة طريفة إذ وضعوا إناء كبيراً مملوئاً بالماء وفي وسطه حاجز زجاجي ، وفي ناحية منه سمكة صغيرة ، وفي الناحية الأخرى سمكة كبيرة ، فلما رأت السمكة الكبيرة الصغيرة اتجهت نحوها وشقت طريقها إليها ، وهذا اتجاه أو اندفاع غريزي ، فإذا بها تصطدم بالحاجز الزجاجي عدة مرات ، ولم تعدل عن سلوك هذا السبيل إلا بعد مرات كثيرة . وأبت بعد ذلك أن تهجم على السمكة الصغيرة حتى بعد أن أزيل الحاجز الزجاجي من بينهما .

أما الإنسان فإنه يدرك العقبة فيزيئها أو يتخطاها أو يدور حولها ، فإذا صادفه حجر في طريقه نقله ووضع جانبا .

ورأيت في أوربا طرقاً غريبة في بابها ، إذا صادف الطريق واد أنشأوا عليه قنطرة مهما يكن طولها ومهما تتكلف ، وإذا قام جبل في طريقهم حفروا فيه نفقا . ولم يكن الأمر كذلك في قديم الزمان إذ كانوا يهبطون الوادي ويصعدون الجبل ، أما اليوم مع الحضارة الحديثة فإنهم يطلبون الطرق المستقيمة دون لف أو دوران .

وتتميز الحضارة الإنسانية بإنشاء الطرق المعبدة . حتى يسهل على الناس الانتقال

من مكان إلى آخر ، ولا تزال بعض الطرق التي أنشأها الرومان موجودة حتى الآن . ولما أخذت مصر في طريق التقدم اهتمت بإنشاء الطرق وتعييدها ، ولا تزال آخذة بذلك ، لأن الطرق في الامة كالشرايين في جسم الكائن الحي . تُرى الى أين تتجه هذه الطرق ؟ .

إنها تُفَضِّلُ إلى الامكنة التي يلتقي فيها الناس يتبادلون المنافع والحاجات ، ولقد عرفنا هذه الأماكن فهي تسمى الأسواق ، وهي قلب الجماعة النابض ، فالإنسان يحتاج إلى السير في الطريق ليتجه إلى غاية محدودة ، هي غاية اقتصادية ، هي المكسب أو الحصول على حاجته في شتى صورها كالطعام أو الملابس وغير ذلك ، أو إلى الحاجات الأولية في منابِعها كمناجم الحديد والذهب . ولذلك عيّن قدماء المصريين الطرق في الجبال التي توصل إلى المعادن النفيسة لحاجتهم إليها .

ولكن الطريق ليس ذهابا فقط ، ولكنه ذهاب وإياب ، وصعود وهبوط ، والمسلكان مختلفان لأنك قد تصل إلى غرضك وتشق إليه الطريق ولكنك تعجز عن الرجوع ، كالذي حكاه القدماء في أفاصيصهم من أن غزالا عطش مرة فنزل بئرا ليشرب منها ، حتى إذا ارتوى عجز عن الصعود من البئر فر به ثعلب وقال له : كان يجب عليك أن تفكر في الخروج قبل ورود الماء .

والطريق هنا صعبة لأنها صاعدة والصعود شاق ، ولذلك كان صعود الجبل أصعب من هبوطه ، وقالوا في أمثالهم : « إن هذا الشيء صعب المرتقى » ،

ومثلوا التقدم بالرفق ، والانحطاط بالهبوط ، ومرجع ذلك إلى المشقة التي نلقاها في ارتقاء الطريق الصاعدة ، وكيف تذال العقبات التي نلقاها .

ولكن الطريق إذا كانت مسطحة فالذهاب فيها والإياب منها يختلف عن الصعود والهبوط ، ولو أننا إذا أزعجنا هذه العقبات التي يلقاها الصاعد لكان أمرهما واحدا . فواجه الخلاف بين الذهاب والإياب ، إنه خلاف في الاتجاه ، وفي معرفة شيء به يمتاز الإنسان على الحيوان هو الفرق بين اليمين والشمال . ولعل هذا يدخلنا

فى أمر آخر هو استعمال الإنسان يده اليمىى دون اليسرى حتى لىعد اليساريون من الشواذ ، فإدراك اليمين من الشمال هو انعكاس أو تصور فئرى للشىء الواحد من طرفه . سئل صغير من أخوك ؟ قال زىء . قيل له ومن أخ زىء ؟ فأجاب ليس له أخ ، لأنه لم يستطع أن يتصور أن الأخوة تشترط وجود الطرفين فى آن واحد فمعرفة الإنسان اليمين والشمال أكبر الظن أنها جاءت من معرفة الإياب بعد الذهاب ، وبذلك عرف ما يسمى فى علم الرياضة والطبيعة بالمكان ذى الأبعاد الثلاثة . ولكن كيف يكون للزمان ذهاب وإياب ، لأن طريق الزمان إلى المستقبل على الدوام ، على عكس المكان الذى ندور فيه فى كل اتجاه . ومع ذلك فإذا كانت طبيعة الزمان هى التطلع إلى الامام ، فإننا نرى كثيرا من الناس يعودون مع الذاكرة إلى الوراء ، ويدفنون أنفسهم فى أحشاء الماضى ، وهذا هو التأخر الشديد . وليس معنى تقدم الإنسانية ورقى الجماعة البشرية إلا شق الطريق نحو الامام ، نحو المستقبل ، وعدم التلفت إلى الماضى .

هذه هى الطرق المادية التى سلكها الإنسان سيرا على قدميه ليصل إلى نبع ماء أو زرع ونماء ، أو حيوان يصيده ، فعبء لذلك الطرق وارتادها وذلها وسلكها صاعدا هابطا ذاهبا آييا . والطرق العقلية شديدة الشبه بالطرق المادية حتى لقد سعى العلماء مناهجهم فى البحث التى يسلكونها للوصول إلى الحقائق بالطرق ، كطريق الاستقراء . وسمى المتصوفة الذين يريدون الوصول إلى الله منهجهم إلى بلوغ هذه الغاية بالطريق ، وسمى الصوفى بالمسالك أو السائر أو المسافر ، وقالوا منازل السائرین وزاد المسافرين ، وكل ذلك تشبيه لهذا المسلك الروحانى بالطرق المادية التى نسير بالأقدام عليها . واختلعت الطرق حتى قال الشاعر فى ذلك .

الطرق شتى وطرق الحق مفردة

والسالكون طريق الحق أفراد

لا يعرفون ولا تسلك مقاصدهم

فهم على مهل يمشون قصاص

وتعددت الطرق الصوفية كما هو معروف عندنا في مصر ، وقام على رأس كل طريقة شيخ له مريدون ، غير أن هذه الطرق التي كانت في أول أمرها روحانية بعيدة كل البعد عن شوائب المادة غرضها الوحيد معرفة الله والوصول إليه ، إذا بها تنحرف وتنغمس في شوائب المادة ويشغل أصحابها بطلب المال .

وإذا كانت الطرق المادية في العصر الحديث لم تعد تحفل بالعقبات التي تصادفها فلا تدور حولها بل تشقها إذا لزم الأمر وتزيحها من طريقها ، فكذلك أصبحت الطرق العقلية في العصر الحديث لا تحفل بالعقبات ، وتريد أن يكون التفكير مستقيما يصل إلى الحق من أيسر سبيل . وهذا هو الطريق الحق واضح مستقيم لا لف فيه ولا دوران ، وهذا هو الطريق المستقيم . ويقال لمن سلك سبيل الرذيلة إنه ضل الطريق ، لأنه ابتعد عن طريق الفضيلة والخير ، ولذلك دعا المؤمنون الله في صلواتهم بقولهم اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

السوق

يحكى أن صحيفة انجليزية أرادت التندر على القراء فأعلنت أنه سوف يقام في يوم كذا بضاحية كذا معرض لحمار الوحش المخطط ، والمعرض سوق ، فذهب إلى ذلك المكان قوم **كثيرون** يبلغون الآلاف ولم يجدوا شيئا . وفي اليوم التالي نشرت الصحيفة أن سوق الحمار قد أقيمت وتفرج الناس بعضهم على بعضهم الآخر .

فأنت ترى كيف يساق الناس إلى السوق كما تنساق الأغنام . واللفظة في اللغة العربية من ساق يسوق بمعنى دفع يدفع .

وفي الحق أن السوق تجتذب الناس إليها ، ويجدون في أنفسهم دافعا لا يكاد يرد إلى الذهاب إليها ، إما للتطلع والمشاهدة وإما للبيع والشراء .

وقديما حكى فيثاغورس الفيلسوف اليوناني صاحب الرياضة والموسيقى أن الذين يذهبون إلى الألعاب الأولمبية أحد أصناف ثلاثة، صنف يشترك في الألعاب يطلب الفوز في العدو أو القفز وما إلى ذلك ، وصنف يذهب لكسب المال بالبيع والشراء وهم الجمهور ، وصنف ثالث لا يطلب المال أو السلطان بل المشاهدة والتأمل أو النظر، أو كما نقول باللغة العامية الفرجة والتفرج . ومن هذا النظر المحسوس أطلقوا القول على النظر العقلي ، والنظار أو أصحاب النظر العقلي هم الفلاسفة . كانت الألعاب الأولمبية ، ولا تزال ، أسواقا يجتمع فيها الناس من كل صنف ، فهم يحتشدون لهذه الامور الثلاثة البيع والشراء ، وطلب الغلبة والفوز ، والتأمل والنظر .

البيع والشراء هو الأصل الذي من أجله أقيمت الأسواق ، أما النصر والظفر ، والبصر والنظر ، فعارضان لقطع الوقت والتسلية .

هكذا كانت السوق في العصور البدائية قبل انبثاق فجر العقل وظهور التفكير . هي المكان الذي يلتقى فيه أفراد الجماعة لتبادل الحاجات الضرورية في المعاش وحفظ الحياة .

وتتماز الجماعة بأمرين التعاون والمحاكاة .

فكل فرد يؤدي وظيفة لا يؤديها غيره لأنه يختص بها ، فهذا يزرع القمح ، وهذا يطحنه ، وهذا يخبزه . وتجد من يغزل الصوف خيوطا ، ثم يدسجه نسيجا ينفع في الكساء . وهناك البناء والنجار وصانع الأحذية وما إلى ذلك . وكلما ارتقت الجماعة تميزت بالتنوع والاختصاص وكثرت أصناف الصناعات . فلا بد بعد ذلك من سوق يلتقى فيها الدساج بالخباز ، الأول يأخذ خبزا ويعطيه بدلا منه نسيجا .

هذه الصورة البدائية للسوق ، الغرض منها التبادل الذي سمي فيما بعد بالبيع والشراء عند استعمال المال . ولا تزال في مصر نشهد السوق التي تقام في أعماق الريف في أحد أيام الأسبوع ، ويذهب إليها الفلاحات يعرضن الدجاج والبيض . والجبن والزبد وهذه المنتجات الريفية . غير أن المدينة دفعت الأسواق إلى الاختصاص

ولا تزال أحياء القاهرة تحمل الأسماء الدالة على ذلك مثل: سوق الفراخ وسوق
الاثنين وسوق السلاح .

ثم سيطرت الدولة على الأسواق فتدخلت في تنظيمها وإقامتها وتشريع اللوائح
التي تسير بمقتضاها ، مثل سوق الخضار والفواكه ، وسوق الأوراق المالية ، وهذه
تسمى « البورصة » .

ولقد قالوا عن السوق إنها مبدلة تعرض فيها حاجات الإنسان من طعام
وشراب ، وهذه البضاعة لا يشتغل بها إلا « السوق » ، ويرفع عنها الإشراف . وصفة
العامة وحدهم بنزول الأسواق وهم . وكما أن السوق مكان يباع فيه الحاجات
المادية فهو مكان كذلك يباع فيه الحاجات الفكرية . كانت أسواق العرب في الجاهلية
أمكنة يجتمعون فيها للتجارة ، وممارض للأدب والشعر . وكان الشعراء يتبارون
في سوق عكاظ .

وللأدب سوق تباع فيها نتائج القرائح المدونة في صفحات الكتب . حكى ابن سينا
سيرة حياته قال إنه كان يوما في سوق الوراقين فرأى شخصا يعرض كتابا صغيرا ،
فأخذ الوراق ودفعه إلى ابن سينا فأبى شراؤه ، فقال له هذا رخيص أبيعك لك
بدرهمين ، فاشتري الكتاب ، فلما كان في الطريق رأى أنه في تحقيق أغراض كتاب
مابعد الطبيعة للفارابي ، فانفتحت له مغاليق ذلك الكتاب لأنه كان يحفظه عن
ظهر قلب ولا يعرف معناه ، وفرح ابن سينا لذلك وصلى لله وتصدق على الفقراء .

فكل اجتماع يتبادل فيه أفرادهم ماعهم ، سواء أكان ذلك ماديا أم معنويا ، جدا
أم لهوا ، فهو سوق . وما يؤسف له أن الأسواق التي يؤثر المصريون الاجتماع
فيها هي المقاهي ، فهي أسواق التسلية واللهو ، ولو أن بعضها يعد أسواقا حقيقية
للتجارة ، يلتقى فيها أصحاب المصالح للاتفاق على البيع والشراء .

والمدارس والجامعات هي أسواق العلم ، يذهب إليها الطلاب يتلقون العلم عن

المدرسين ، فالمدرس يبيعه والطالب يشتريه ، وإذا لم يدفع الطالب الأجر دفعته الدولة من مالها .

وهناك أسواق تظهر وتختفي بظهور الدافع إليها ، مثل سوق الانتخابات للمجالس النيابية ، فهي أمكنة للاجتماع ، لأن النائب يهيء الدعوة للناخبين يعرض فيها نفسه ويبين صفاته . وتشتري فيها الأصوات بأساليب شتى ، بعضها بالمال الصريح وبعضها بما يساوى المال . كنت رئيسا للجنة انتخابية في البرلمان السابق فلاحظت وفدا من الناخبين دخلوا للتصويت وقد لبس كل منهم « بشكيرا » ، أبيض جديدا على رأسه ، وعلمت أن النائب المرشح هو الذى أهداها إليهم — ولا فرق بين الهدية والرشوة فى هذه الحال — وقد يكون الثمن وعدا بخدمته ، وما أكثر وعود المرشحين ، فهم كلية يسهل الرجوع عنها . وقد بلغ من براعة أحد المرشحين أنه كان يقسم الجنيه نصفين ، يعطى الناخب أحدهما قبل إعطاء الصوت ويبقى الآخر إلى ما بعد التصويت تأكيذا للضمان .

فهل تشك بعد ذلك أن الانتخابات أسواق للبيع والشراء .

والخير الذى يلبغى أن يصدر عن النفس دون ثمن أو أجر أصبح له سوق ، يسمونها بالسوق الخيرية ، فيها جميع صفات السوق المعروفة ، إذ تعرض بعض الأشياء الرمزية ، يشتريها الأغنياء بثمن كبير للإنفاق منه فى أوجه البر والإحسان . ويتوقف نجاح البائع فى اجتذاب المشتري والتأثير فيه بشراء البضاعة على أمور كثيرة : فمنها حسن العرض ومعرفة أهواء الناس ولطف المدخل فى الكلام لتزيين البضاعة وبيان فضلها . والمرجع فى ذلك كله إلى العقل وصناعة الكلام .

مع الكرب

اللهو

الثقة

التقدم

الإضراب

اللائق والواجب

الذمو

الدنيا مملوءة بالمتاعب والمصاعب ، أو هكذا تظهر للناس ، أو الأصح أن الناس يميزون ما يقع لهم فيقولون إن بعضه نقمة وبعضه الآخر نعمة . وسموا النقم مصائب . وقد يرى الواحد منا غير ذلك فيرى حسنا ما ليس بالحسن عند غيره . والحقيقة أن الواقع لا مرد له . ولا يوصف الخير والشر ، أو الحسن والقبيح . إلا في أوامنا وتقديرنا ، فلو فقدنا التقدير والتمييز ما وصفنا الأشياء بقيمة ما .

الخلاصة أن الإنسان يبتلى بالمصائب ولا بد له من احتمالها والصبر عليها ، لأن وقعها ثقیل قد يؤدي إلى الضرر بصاحبها بل قد يؤدي به .

وقد سمعنا عن قوم نزات بهم خسائر مالية جسيمة فأصيبوا بالسكتة القلبية وماتوا لساعتهم . ومن أغرب حوادث الانتخابات الماضية وفاة طالب ترشيح لم يركه حزب من الأحزاب . وكثيراً ما ينتحر المصابون بالفشل كقائد الجيش أو الطالب في الامتحان . والرغبة في الموت دليل على الهرب من الحياة التي لا تجرى مع الهوى ، وتبعث على الرضا ، وتشبع اللذة بالنصر والظفر .

ليس من الضروري أن يكون الهرب من الحياة بالتخلص منها جملةً بالموت . فغريزة الحياة قوة يحسب لها كل حساب ، ولو تيسر لكل إنسان ستم الحياة أن ينتحر ما بقي على ظهر الأرض إنسان .

وعتدئذ يلجأ الناس إلى الحيلة .

والحيل شتى ، منها الدسيان الذي قد يمحو من صفحة الذهن كل أثر للمكاره . وهذه استجابة طبيعية الغرض منها حفظ الحياة .

ومنها الانغماس في الخمر أو المخدرات ، ولذلك إذا أرادت الحكومة مكافحة المخدرات في مصر فعليها أن تعالج الداء من أصله فتعمل على إزاحة الهموم عن النفوس . ومن المشاهد أن استعمال المخدرات ينتشر عقب الحروب لما سبق أن

عانته الشغوب ، وليست الرغبة في التخدير إلا حيلة يلجأ إليها صاحبها للنسيان .
فالنسيان هو الأصل الذى يدفع إلى كل ذلك ، وهو الغاية المقصودة .

ومن وسائل النسيان الانصراف إلى عمل يشغل البال ويلهى صاحبه عن المصائب
ومن هنا سميت هذه الأعمال باللغو لأنها تلهى عن غيرها . وأصناف اللغو كثيرة
تختلف باختلاف الناس ، وتعدد أمرجتهم ، وتميز بيئاتهم ، وتنوع ثقافتهم ، هذا إلى
اختلاف الذئاة والسن والطبيعة والهوى .

فالأصل فى اللغو ما ذكرناه : نغنى الرغبة فى تسلية النفس عن المصائب وصرفها
عن الهموم . وهو لذلك ليس مقصودا بالذات ، ولو كان مقصودا لسمى عملا تشتغل
به ، وتستثقله ، وتحس بتبعته ، وتضطر إلى حمله ، مع ما يترتب على ذلك كله من أعباء .
والأصل فى اللغو أنه استجابة طبيعية للتسلية لا تعتمد فيها . ثم تحس النفس
بهذا الدافع إلى عمل أى شئ آخر فيه حركة ظاهرة . وتختلف حركات الناس : هذا
يهز رجله ، وهذا يعبث بشاربه ، وثالث يحك ذقنه ، ورابع يعد حبات المسبحة .
وأعرف شخصا إذا نزل به همٌّ وارْتبك نسي عناه . ثم تصبح هذه الأمور لوازم
لا يستطيع صاحبها التخلص منها ، ولكل منا لوازمه التى لا تفارقه .

وقد لا يكفى هذا اللغو الصغير العابر ، فينصرف المرء إلى عمل يستغرق وقته ،
ويستغد نشاطه . ولا بد من ذلك ، أى من شئ يصرف المرء فيه طاقته . ولذلك كان
اللغو ظاهرة نفسانية واجتماعية أيضا ، لأنك لا تجد أمة من الأمم يخلو أهلها من اللغو .
أما الأمة التى تريد أن تنهض فإنها تنظم ألوان اللغو ، وتصرفه إلى ما يعود
بالفائدة ، حتى لا يكون مجرد عبث لا يجدى . وأقول — وأنا آسف — إننا فى مصر
لا نحمى العمل ، ولا نحسن اللغو . ولذلك أسباب كثيرة :

الأول أن حياتنا لا تزال تجرى على سنة حجاب المرأة على الرغم من خروجها
سافرة الوجه ، فلرجال أنديتهم وللنساء اجتماعاتهن ، ولا تزال المقاهى — والحد
— عامرة بالمتسكمين من الشباب والشيوخ الذين ينفقون الوقت فى لعب الزرد

أو الورق أو شرب الخمر أو النظر إلى النساء والتحديث فيهن وهن غاديات رائحات وليس هذا هوا يليق بأمة ناهضة . والأمر كذلك في مجتمع المرأة حيث يشتغلن بالفارع من الحديث والتافه من الأمر ، وحيث يدور الحديث عن الرجال ، كيدور حديث الرجال عن النساء ، وهذا ضرر الحجاب . ولا تزال الفتاة بعيدة بروحها عن الفتى في الجامعة ، ولا بد من وقت طويل تتم فيه مشاركة الرجل للمرأة مشاركة حقيقية في المجتمع . فإذا تم ذلك تغير اللهو تغيرا عظيما ، لأن عملك الذي تلهو به تريد به إعجاب الجنسین معا لا جلدس واحد فقط ، كما يبعد الناس عن الاستغراق في التفكير الجنسي الذي يمنعهم من التفكير في أى شىء آخر .

والثانى أن اللهو فن أو صناعة ، وكل فن يحتاج إلى إعداد وتعلم وتعليم . وقد نظرت الأمم المتحضرة في هذا الأمر ، ودونوا السكتب المطولة في أصناف الهوايات ، وكيف يستفيد منها طالبها ، وكيف يجيدها في وقت الفراغ . وأغلبها من قبيل الفنون الجميلة كالرسم ، والتصوير ، وزراعة الزهور ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وما إلى ذلك . وقد بنوا الدور في أوروبا لتحقيق هذه الأهداف ، فاشترطوا أن يكون في كل دار حديقة صغيرة يزرعها صاحبها بنفسه ، لالاستغلال بل للتسلية وقطع الوقت واللهو . وأظن أنك سمعت عن رئيس وزراء انجلترا الذي كان يشتغل في حديقته بيديه .

يقوم البيت في الغرب على ثلاثة أشياء : مكتبة تغذى العقل ، وهيبانو ، يغذى الروح ، وحديقة يعمل فيها الجسم ويتنفس . والبيت المصرى في الوقت الحاضر يخلو في الغالب منها جميعا . ولقد كانت البيوت القديمة أكثر ملاءمة للحياة : فيها فناء واسع يزرع جانب منه ، كما يقتنى أهل الجيل السابق بعض السكتب . أذكر أننى حين ارتقيت من الطفولة إلى الصبا ، وتركت عبث الأطفال ولعبهم في الحارة التى كنا نساكن فيها ، ورغبت في شىء آخر ألهو به وأقطع به الوقت ، اكتشفت عند أبى - رحمه الله - كثيرا من السكتب أغلبها دينية وبعضها أدبى مثل الأغاني لأبى

الفرج، والأدب الكبير لابن المقفع . وقد قرأت هذا الكتاب الأخير وأنا في الثانية عشرة فكان له أعظم الأثر في نفسي حتى اليوم .

والثالث أننا كأمة لا نحب الفن ، ونعتقد أنه عبث وهزل وحطة وحرام . وأكبر الظن أن نظرة رجال الدين وحكمهم على أغلب الفنون بتحريمها أو استهجانها هو الذى صرف الناس عن الموسيقى والغناء والشعر والتصوير والنحت . وهذا هو السبب فى انصراف الفن الإسلامى إلى الزخرفة الهندسية لا إلى تصوير الأحياء خشية عبادة الصور .

وأمة لا فن فيها لا حضارة لها .

لأن الفن سبيل إلى صرف الطاقة فى شىء جميل تلهو به النفس وتستريح إليه فتحتمل أعباء الحياة .

أما اللهو الذى نفعله فى حياتنا الحاضرة ، فهو كما ترى ، لا خير فيه ولا غناء إذ يضيع الوقت ويقطعه ، ولكنه لا يبدد السأم ولا يذهب بالهم ، ولا يخفف نازلة ، أو يزيل مصيبة .

الشقة

كنت وأنا شاب صغير السن أثق فى كل شخص ولا أضع أحدا موضع الشك . وقد مرت بى أحداث كثيرة علمتني الحذر والشك ، ورأيت منها إلى أى حد يكذب الناس ، وإلى أى حد يخدعون غيرهم ، ويبيدون خلاف ما يبطنون . وأقرب مثال لذلك أنى قابلت منذ أيام رجلا ، أو الأصح أنه قابلنى بالقرب من محطة حلوان وقال لى : هل الطريق إلى الجزيرة بعيد ؟ قلت نعم ، ولكنك تستطيع أن تشى فى شارع كذا وكذا . قال : إني رجل است قاهريا ، وقد جئت من بلدتى ماشيا ، وليس

معى مال ، ولو أنى ركبت الترام وتذكرت فى الحال ذلك الوجه لقد قابلى منذ بضع سنين فى العباسية ، وقص على نفس القصة بألفاظها ، وصدقته فى ذلك الحين ، وأعطيته بل أجزلت له العطاء فضحكت فى مرمى ، وأعطيته قرشا ، مع أننى عادة لا أمنح السائين فى الطريق لأنهم يتخذون من التسول حرفة ، وفى التصديق عليهم تشجيع للبطالة .

فإذا قبلت هذا الغش من شخص لا أعرفه كهذا الشخص ، فكيف أفهم غش الصديق الذى منحته ثقى ، وأزواجه منزلة أخى بل نفسى ، وأصبح موضع سرى وكشفت له دخيلة أمرى . لقد كان لى صديق من هذا الضرب ، وأقسم أننى ما حزنات لشيء بمقدار ما حزنات لانكشاف أمره ، حتى لكأننى فقدت ابنا من أبنائى .

لذلك لم يكن من الغريب أن يجرى المثل السائر بهذه الحكمة : سوء الظن من حسن الفطن ، مع أنها تخالف كلام الله تعالى : إن بعض الظن إثم ، وهذه مشكلة دارت فى ذهنى والتمست لها الحل . هل أثق بالناس ، أو أسىء الظن بهم ؟ وهل أضمن الوفاء بمن وثقت فيهم ، وقد أصبح الوفاء عزيز المنال ، إن لم يكن مستحيلا ، كما زعم الشاعر القديم حين قال إن المستحيلات ثلاثة : الغول والعنقاء والحل الوفى .

وقد عولت فى حل هذه المشكلة على الثقة بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وامل ما انكشف لى من خصال الناس الرديئة وخيانتهم للعهد ونقضهم للمواثيق إنما كان سببا فى زيادة المعرفة بالله .

ولكن الدنيا ليست ربا وعبد فقط ، بل هى عباد يتصل بعضهم ببعضهم الآخر ، يتعايشون ويتعاملون ويتصادقون . والناس مضطرون إلى المعاشة ، نعى الشركة فى المعيشة ، وإلى تبادل المنافع والحاجات ، وإلى المصادقة وهى المودة وانكشاف النفس ، ولا بد فى ذلك كله من الثقة التى تؤكد معنى التعاون والاعتماد على الغير ، حتى يستقيم أمر المجتمع ويتماسك بنيانه ، كما جاء فى الآثار : الناس للناس كالبنيان يشد بعضهم بعضاً .

فإذا قلبت النظر في أفراد المجتمع وأنظمته ومؤسساته رأيت أن الرابطة التي تجمع الفرد بالفرد ، وتصل الأفراد بالأنظمة والمؤسسات ، هي الثقة التي ينحل بفقدانها ببيان المجتمع مهما يفرض عليه من قوانين .

ومصدر الثقة حياة الأسرة ، ومصدر الشعور بالثقة حياة الطفولة . لأن المولود لا حول له ولا قوة ، بل يعتمد على أمه في رضاعته وهي قوام طعامه ، وفي تأمينه من الخوف والجنح . وهي تقبل على ابنها بدافع من الفطرة المتأصلة في غريزة المرأة وطبيعة الأنثى ، فتهب له نفسها وتغذيه بلبنها وهو بضعة منها حتى توفر له الحياة فلا غرابة أن يثق الطفل بثق في أمه وفي أهله ، ما داموا يرعون مصالحه ويهتمون بأمره . فهو يتام مطمئن لا يخشى انتهاكا ولا اغتصابا ، حتى إذا شب عن الطوق ، وانصل بغيره من الأطفال والأغراب ، وجد بعضهم ذئابا تريد اغتياله ، وانتهاك ماله ، والاعتماد على حقوقه . ويوصى الآباء أبناءهم باليقظة والحذر وعدم الثقة في الناس ، ولا يطمئنون أن يدعوهم وحدهم بل يرسلونهم إلى المدرسة مع خادم . فينشأ الطفل وقد وعى ما الثقة ، وما الحذر ، وما الخيانة .

أقول إلى جانب ثقتي بالله بعد أن فقدت الثقة بالناس ، أصبحت أطمئن إلى السكتب وأركن إليها . والسكتب كما قيل صديق لا يمل ، يعطيك ولا يأخذ منك ، تقرأه إذا مللت فيسليك ويسرى عنك ، فإذا سئمت القراءة ألقيته جانبا فلا يفضب ولا يحتج . وهو إلى ذلك صورة من أفكار الأدباء الممتازين ، فكانت تشرى إنسانا يتحدث إليك بقروش قليلة . . . غير أن السكتب مع هذه المنافع الجزيلة مجموعة من الأوراق والحروف ، ليست فيه حياة الإنسان الذي يتأثر ويؤثر ، ويستمع ويتكلم ، فلا غنى عن الناس والاتصال بهم في أية حال .

ولذلك عولت على قاعدة تريح قلبي هي أن أعامل الناس كما هم عليه في الواقع ، لا أغالى في طلب الأمانة ، وما عدت أغضب من أحد ، فهذه هي أحوال الناس ، ولكنى لا أخون الأمانة ولا أضيع ثقة من وضع ثقته في ، أى أننى أفعل الواجب مع قطع النظر عن النتائج أو سلوك الناس .

ولقد تدهش كيف تنهض أمة صغيرة العدد وتلتصر على أمة أخرى أعظم منها عدداً ، إذن فاعلم أن السر في ذلك هو ثقة أفراد الأمة بعضهم في بعضهم الآخر . وكان ذلك شأن العرب في إبان نهضتهم وعند ظهور الإسلام ، فقد أعلن محمد عليه السلام الرسالة فأمنت به السيدة خديجة ، ووثق به أبو بكر فسمى لذلك الصديق ثم أخذ عدد المؤمنين الوثائق بالرسول الأمين يزداد شيئاً فشيئاً ، حتى انتشرت الدعوة ، وظهر الوعد الحق ، وانتصر العرب بعد ذلك على أقوى دولتين في العالم المتحضر ، وهما الفرس والروم ، مع كثرة عددهم ووفرة عددهم .

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تفسير هذه الظاهرة التي تشبه المعجزة ، وعندنا أن تفسيرها الصحيح هو شيوع الثقة بين نفوس المسلمين فكانوا كالبليان المرصوص .

فلما تفشت الأهواء في الشرق وتطلع الطامعون إلى الخلافة شاع الحذر وانعدمت الثقة ، وكان أول معول هدم الإمبراطورية الإسلامية حتى تفككت بعدها إلى دويلات متنافرة مأساة الرشيد وجعفر البرمكي ، ومصدرها شك الخليفة في نوايا وزيره وفقدان الثقة بينهما .

وعلة الشرق اليوم هي أزمة الثقة بين أفراد الأمة الواحدة ، وبين كل أمة وأخرى . لأنه كما يفقد الفرد ثقته بصاحبه ، تفقد الأمة ثقتهما بالأمة الأخرى ، والثقة هي أساس المعاملة . وليس مانراه في الوقت الحاضر من انقسام العالم إلى معسكرين كبيرين : أمريكا من جهة وروسيا من جهة أخرى ، إلا أزمة ثقة وانعدام تعاون . ولا أمل في الصلح والمهادنة إلا إذا عادت الثقة إلى القلوب .

وفقدان الثقة دليل على الخوف ، وللناس الحق في ذلك ، وما بالك بسلاح كالقنبلة الذرية أو القنبلة الإيدروجينية يفتك بمدينة بأسرها فيذهب بملايين الأرواح في لمح البصر ؟ . أليس للناس الحق في الخوف بل المانع والفرع . وكيف تريد من يملأ قلبه الخوف أن يطمئن أو يثق في عدوه .

ولذلك طالمت علينا هيئة الأمم ومجلس الأمن بالمبادئ الأربعة وهي الأمن من الفقر والخرف وحرية الرأي وحرية الدين .

فهل تقتصر المبادئ والآمال ، ويسمو الإنسان على المطامع والأهواء .
إذا تبدد الخوف عادت الثقة ، وإذا عادت الثقة حل السلام .

التقدم

قال صاحبي : أي نوع من التقدم تقصد فهو كثير ، أتريد التقدم في العلوم ، أو في الصناعات ، أو في المخترعات ، أو في الصحة العامة ، أو في المجتمع .
وسكت لأن الجواب يحتاج إلى تأمل .

وتأملت فرأيت أن لفظ التقدم ، الذي يجري على الألسنة بوجه خاص في العصر الحاضر ، من الألفاظ المستحدثة التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر . فهو بضاعة أوروبية وفدت إلينا مع الحضارة الغربية الحديثة .

أما القدماء فلم يعرفوا التقدم ، بل قالوا هذا أفضل من ذلك ، وقالوا بالآرقي والادنى ، وذكروا الرقي والارتقاء . ونظرا بن خلدون في أحوال الدول ، فرأى أنها تمر بأدوار من الرقي والانحطاط ، أو التقدم والتأخر .

فالتقدم من المعاني الإضافية التي لا تفهم إلا بالنسبة إلى شيء آخر ، أي بالنسبة إلى التأخر لأنه يقابله .

وإذا كانت الجماعات الإنسانية تتقدم وتتأخر ، فذلك ناشئ من سيرها إلى الأمام أو إلى الخلف ، والأمام والوراء أمران نسبيان اعتباريان ، أما الثابت الذي لا شك فيه فهو هذا السير ، ولذلك قالوا سيرة الدولة كما قالوا سيرة الشخص . وأما الحكم على هذه السيرة بالرقي والتقدم أو الانحطاط والتأخر ، فمسألة أخرى فيها كثير من الخلاف . ولذلك كان مؤرخو العرب كالطبري وابن الأثير على صواب في وصف تواربهم بالسير ، فيما عدا ابن خلدون الذي نظر في أحوال الأمم فرأى

أنها تخضع لنواميس طبيعية واجتماعية في نشأتها واكتماها وزوالها . وسمى الكمال
تقدما والزوال تأخرا ، وبحث في الحضارة وأسباب العمران . فلا غرو أن يقتزن
معنى التقدم في الدول بمعنى الحضارة .

وافقد نظر قوم في الحضارة البشرية أهي من باب التقدم أم من قبيل التأخر .
وتساءلت جامعة ديجون في فرنسا في القرن الثامن عشر هذا السؤال وطرحته
للبحث ، وأعلنت عن جائزة لأفضل من يكتب في موضوع الحضارة وأثرها في تقدم
البشر . ونال الجائزة الأولى جان جاك روسو ، الذي أظهره هذا البحث وشهره
وجعله في عداد المفكرين والفلاسفة ، وكان له رأى طريف هو أن الحضارة الحديثة
سبب من أسباب التأخر والشقاء لا التقدم والارتقاء ، وأن أفضل حياة تلائم
الإنسان هي تلك التي بثها الله في الناس بالفطرة الغريزية والطبيعة المتأصلة ، فكان
روسو على رأس القائلين بالمذهب الطبيعي ، ومن أقواله التي استهل بها كتاب
العقد الاجتماعي : ولد الإنسان حرا ولكنه مقيد بالأغلال في كل مكان ، فالخير
عنده في رجوع الإنسان إلى المعيشة الطبيعية ، والشر في الابتعاد عنها ، وابتداع هذه
الصور الإنسانية المملوءة بالشرور . ولم يقف روسو عند هذا الحد بل أراد أن
يطبق هذا النظام على كل شيء في الحياة ، ففي التربية يجب أن يترك الطفل حرا من كل
 قيد حتى ينمو أكمل نماء . ولكن الرضيع عند ما يولد يلف بالاقطة التي تجدد
من حركة أعضائه ، وهذا هو الشر .

ولكن المجتمع قد خطا خطوات واسعة باعدت بينه وبين المعيشة الفطرية
البرائية ، ولم يعد في الإمكان أن نرجع عن هذه الصور من الحياة . ويكفي أن تتصور
أن الناس في مصر سوف يخلعون ملابسهم ويمشون في الطرقات وفي داخل الدور
وفي كل مكان عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، لا يلبسون شيئا يسترون به حتى عوارثهم ،
للتبين ابتعاد هذا الاقتراح من أن يكون عمليا . ومع ذلك فهو اقتراح ممكن ، وقد
ظهرت في أوروبا نواد يعيش المشتركون فيها في عرى تام .

قد يقول قائل : التقدم في العلوم هو التقدم الذي به تمتاز الإنسانية ، مثل الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وغير ذلك ، وبخاصة بعد وصول العلماء في العصور الأخيرة إلى معرفة أسرار الكون ، حتى اهتموا إلى تركيب المادة ، وعرفوا سر الذرة وأطلقوها من عنانها .

اقول هذا حق ، ولا ينكر أحد فضل المعرفة وشرف العقل ، ألم يذكر الشاعر
لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان

ولكن العقل في الإنسان يقابل الغريزة في الحيوان ، فقد ألهم الله الحيوان أن يتغذى حاجته بالفطرة ، ووهب للإنسان العقل ليغضى هذه الحاجات . والخاصل واحد ، لأن كلا من الحيوان والإنسان يولد ويعيش ثم يموت ، يستوى في ذلك من عاش بغريزته أو من عاش بعقله وحكمته ، بل قد يكون الحيوان أكثر سعادة من الإنسان ، والسعادة هي الغاية من الحياة . وإذا لم تكن السعادة هي الغاية فما هو الغرض من الحياة إذن ؟

فإذا سللنا بأن السعادة هي مطلب الإنسان ، فالمشاهد أن الجمال أكثر من العقل . سعادة ، كما قال الشاعر القديم

ذر العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

إلى أين تقودنا هذه العلوم ؟

تطلب العلوم لثمرتها أو فائدتها التي تعود على البشر ، والثمره التي نشاهدها هي ثمرة مادية ، لأن العلم مادي ، فهي تفيد في بناء منزل ، ونسيج ملابس ، وإضاءة مدينة ، وركوب مطية ، وما إلى ذلك مما يدعو إلى رفع مستوى المعيشة . ومع ذلك فهذا كله مما يدخل في باب الصورة الخارجية ولا يمس الجوهر . وقد بما كانت الشعوب صوره من الحياة في بناء دورهم وخلق صناعاتهم لا تزال تعجب بها حتى اليوم .

كذلك الذى نشاهده من آثار قدماء المصريين . ثم انقرضت حضارتهم وتقلبت على مصر حضارات أخرى ، ولا يزال المصريون يعمرون أرض مصر .

ولنفرض أن الإنسان استطاع بالعلم أن يصل فى صاروخ إلى القمر ، فما جدوى ذلك ، وما أثره فى تقدمه ؟ إذا استطاع العلم أن يجعل من الإنسان كائنا آخر أرقى من البشر ، كالملائكة مثلا - ولو أننى لا أعرف على وجه التحديد ما الملائكة - لكان العلم قد أخذ بيد الإنسان فى طريق التقدم . وأكبر الظن أن الإنسان سوف يظل هو الإنسان يولد ثم يموت ، ويذهب بذهابه كل شيء .

قالوا : التقدم هو التطور ، ثم زعم العلماء أن الإنسان لم يكن كذلك منذ أقدم العصور ، بل تطور من كائن آخر أكثر انحطاطا وأدنى إلى القرد شها ، ثم سار شوطا فى طريق التقدم فظهر عنده العقل ، واستعمل يده وصنع الآلة التى تيسر له القطار والطن ، واهتدى إلى النار ، وعرف الحديد والنحاس حتى بلغ عصر السكهرباء . وظهرت فى ألمانيا بوجه خاص مذاهب تزعم أن الإنسان قد ملك عنان الطبيعة وأخذ يتحكم فيها . وطلع نيتشه بمذهب « السوبرمان » ، أو الإنسان الأعلى مما هو عليه فى الحاضر . فانظر إلى مصير ألمانيا الآن وكيف ذلت بعد عز ، وتأمل مصائر الدول الغابرة التى أصبحت أثرا بعد عين .

وبعد ، لا أريد أن أدفع الشك إلى نفسك من جهة الحضارة والتقدم والرقى . بل إن مصر اليوم فى أشد الحاجة إلى الأخذ بأسباب التقدم ، وهى أسباب مادية مستمدة من العلم ، كى تستطيع الوقوف على أقدامها بإزاء الدول الأخرى ، لكننى أريد أن تحتفظ بشيء يقف فى سبيل هذه المادية الجارفة هو الأخلاق .

الإضراب

الإضراب ظاهرة حديثة على الإنسانية ، وهى أكثر حداثة فى مصر ، ويبدو أنها وفدت إلينا مع واردات المدنية الغربية بما فيها من محاسن ومساوىء . ويبدو أن الغربيون مشكلة اجتماعية ألفوا فى حياها الكتب ، وخصصوا لعلاجها البحوث .

وبذلوا فيها الجهود ، ولا تزال نسمع عن إضراب عمال الفحم أو الشحن في أمريكا وانجلترا مع رقيهما وسلطانهما وراثتهما . وهذا دليل على أن المشكلة مشكلة العصر كله شاعت في أغلب الأمم ، فأصبحت عالمية لا تكاد دولة تخاص من آثارها . والإضراب داء له أسباب كثيرة نفسانية واجتماعية واقتصادية وسياسية . وهي جميعا متماونة في إحداث هذه الظاهرة ، أو قل إن الإضراب هو الأثر البارز لتفاعل هذه العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، مثله في ذلك مثل الخراج الذى يضرب في ذراع المريض دليلا على فساد الأجهزة الباطنية ، وحاجة الجسم إلى التخلص مما تعرضت له من سموم .

وإذا تتبعنا تاريخ الإضراب في مصر رأينا الأصل في الدافع إليه سياسيا يرجع إلى رغبة المصريين في التخلص من الاحتلال البريطانى ، وقاد الحركة بعد الحرب الكبرى الماضية طلبة المدارس لأنهم صفوة المثقفين والشباب المتحمس ، ووافقهم الرأى العام على ذلك ، لأن النفوس جميعا قد امتلأت بالثورة ، وآمنت بالحرية ، ونزعت إلى الاستقلال ، وأضرب الموظفون فشلت حركة الأداة الحكومية ولم نجد حراب الإنجليز في إخماد نار الثورة ، واضطروا إلى إعلان استقلال مصر ورفع الحماية عنها .

وكان ذلك الأضراب مشروعا يهدف إلى غاية محدودة ، حتى بلغنا الغاية ، ووصلنا إلى الغرض المنشود ، فكان من الواجب أن تنتهى هذه الخطوة باستنفاد غرضها ، فتفرغ مصر بعد ذلك لترتيب البيت ، والهضة بالمرافق الداخلية ، وترقية شئونها ، حتى يصل إنتاجها وثقافتها وحضارتها إلى المستوى اللائق بها . ولما كنا مع الأسف تنسكبنا هذا الطريق وانصرفنا إلى عمل من شأنه شل أجهزة الإنتاج ، مما يدعو إلى خسارة شديدة في وقت نحن في أشد الحاجة إلى تعبئة جميع الجهود لاستكمال أسباب الهضة والتقدم . بل لقد شاع الإضراب في طوائف ينبغى أن تكون أبعد الناس عن التفكير فيه .

ولنبداً بالدوافع النفسانية لأنها ألصق بنا ، ولا بد أن تستحيل البواعث الخارجية إلى دوافع باطنة . والمحرك لأعمال الإنسان أحد أمور ثلاثة : الرضا أو السخط أو الانسياق ، فإذا شعر بالرضا أقبل على عمله ، وإذا شعر بالسخط انصرف عنه ، وإذا لم يشعر لا بسخط ولا برضا سار كآلة مسوقا دون وعي . والإضراب عن العمل مظهر من مظاهر السخط ودليل على عدم الرضا . وقد يكون الإضراب مظهراً من مظاهر الاحتجاج الصامت أو السابي ، فكثيراً ما نرى الطفل يضرب عن تناول الطعام أو اللعب أو الاستذكار إذا لم يكن راضياً ، ولن يزيده عقاب أهله له إلا إمعاناً في خطته . ولن يصلح شأنه إلا إذا عرفنا علتة . وعلة الرضا عند الطفل ثلاثة أمور : الشعور بالحرية والمحبة والتقدير . والحرية المطلقة هي الفوضى بعينها ، ومن الضروري أن يتعلم الطفل الخضوع للنظام والإقبال على أعمال قد لا تروقه ، وكثيراً ما نجد من حرّيته ، فإذا لقي من البيئة محبة وتقدير أَرْضَى بهذه القيود وأقبل على عمله . والرابطة التي تربط بين والديه وبينه هي عاطفة المحبة . وهي التي تجعل الأب يشقى في سبيل ابنه ، وتجعل الأم تتحمل المشاق الشاقة مع السهر الطويل والإقبال على العمل كي تنجز ما يطالبه ابنها وتجهز له ما يريد . والأمر الثالث التقدير ، أو جزاء العمل . ومن الطبيعي أن يشعر صاحب العمل بتقدير الناس له وإلا فإنه ينقطع عن عمله حتى إذا وجد ترحيباً بهذا العمل وتقديراً له ، وذلك بصورة أدبية أو مادية ، استمر في أدائه . فالإضراب كظاهرة نفسانية فردية ترجع إلى فقدان المحبة وانعدام التقدير .

ولسنا نسمى انصراف الفرد عن عمله إضراباً إلا من قبيل التجوز ، والأصح أن يسمى فتوراً أو هرباً ، إذ الواقع أن الفرد حين لا يجد محبة ولا تقديراً يهرب من هذا العمل وينصرف إلى غيره .

أما الإضراب بمعنى الكلمة فظاهرة اجتماعية صاحبت الحضارة الحديثة منذ القرن التاسع عشر ، واشتدت في القرن العشرين ، وترجع إلى اختراع الآلات وانتشار المصانع بدلاً من العمل الفردي ، وظهور الوعي الاجتماعي في الطبقات .

فما الفرق بين المصنع والعمال ، وبين الوالد وأبنائه أو المعلم ، ووصيائه .
الفرق الأول أن الوالد أو المعلم إنسان ، وأن المصنع جماد أو آلة ، ونحن نحب
أبائنا أو معلمينا ونرضى بما فيهم من خير ومن شر ، ولا يمكن أن نحب المصنع
أو الآلة إلا على سبيل التشبيه ، ومن هنا فقد العامل عنصر هاماً من العناصر
الدافعة له على العمل نعى عنصر المحبة ، سواء محبة صاحب العمل ، إذ لا يوجد صاحب
عمل بمعنى الكلمة مع اتساع المصانع واستخدام الآلاف من العمال . أو سواء محبة
العامل لعمله لأنه لا ينتج عملاً كاملاً يستطيع أن يعتز به ويلقى عنه التقدير ، لأن
العامل الحديث يؤدي في المصنع جزءاً يسيراً جداً من أجزاء الإنتاج . نريد أن
نقول إنك لن تجد عاملاً واحداً يصنع السيارة بل يشترك في صنعها مئات من
المختصين ، ولا يستطيع أى واحد أن يعتز بما عمل ، أو يباهى به ، أو ينال التقدير عليه .
كان العامل في الزمن القديم يشعر بالرضا لأنه أنتج شيئاً إنسانياً ، أما اليوم
فأصبح الإنتاج صناعياً بل آلياً ، وأصبحت الآلة هي كل شيء ، وحلت محل الإنسان .
وكان إنتاج العامل القديم خائفاً أو إبداعاً يدخل فيه الميل الشخصي والمزاج والتجربة ،
على حين يقف عامل اليوم أمام الآلة ليديرها لا أكثر ، فهو لا يخلق شيئاً .
وقد كان الفيلسوف برجسون على حق حين رأى نشوة النفس ولذة الروح تنشأ
عن الخلق والابتكار .

وهناك عامل اجتماعى آخر نشأ عن تجمع العمال في مكان واحد وكانوا قبل ذلك
متفرقين ، ولذلك يشيع الإضراب بين العمال في المصانع الكبرى ، ولا تجد ذلك
بين الزارع لتفرقهم . ولهذا التجمع آثار في سرعة انتشار الآراء ، إلى جانب
انتشار التعليم ، ونيل العمال قسطاً كبيراً من مبادئ العلوم ، حتى يتمكنوا من إدارة
أجهزة الآلات الحديثة المعقدة .

وهناك عامل اجتماعى يرجع إلى علة نفسانية ، ويفسر نزعة إضراب الطلاب
وبعض الطوائف في مصر ، هو الشعور بالنقص ومحاولة الارتفاع إلى مرتبة أعلى
أو الاحتفاظ بهذه المرتبة .

وقد أدى انتشار التعليم ، و رقى العمال ، وسخطهم على عملهم الآلى ، إلى التطلع نحو حياة مادية أرقى . ولو جمعت ثروة أمة من الأمم ووزعت بالتساوى على جميع أفرادها ما نال كل واحد ما يطمع فيه ، ولا سيما بعد ازدياد عدد السكان نتيجة تحسين الصحة العامة . فهاهنا مشكلة اقتصادية حساسية خطيرة تقتضى العمل على زيادة الثروة العامة ، وهو أمر ليس حله سهلاً إذ يتوقف على الموارد المحدودة . وقد ذهبت بعض الدول إلى الحد من زيادة السكان . وطالبت بعض الدول بمستعمرات مثل ألمانيا قبل الحرب الأخيرة ، ولكنها هزمت . أما غلام الأسعار فمشكلة طارئة بعد الحرب وعلاجها فى مصر يحل مشكلة إضراب الطوائف .

هذه عجالة رسمنا فيها الخطوط الرئيسية للمشكلة ، ويقتضى العلاج الصحيح النظر فى جميع الأسباب ، فمن الناحية السياسية يجب على الأحزاب الابتعاد عن استخدام الطلبة فى تأييدها ، وبخاصة بعد حصول مصر على الاستقلال .

ومن الناحية النفسانية يجب أن تبتكر الوسائل التى تشيع الرضا والبهجة فى النفوس مثل المهرجانات العامة ووسائل التسلية (الإذاعة - السينما - النيازو - الموسيقى - والاحتفالات الدينية العامة) ، وتيسير قضاء أيام العطلة فى الحدائق وعلى شاطئ البحر وما إلى ذلك . ثم ربط النفوس بمحبة شئ عظيم ، وهو الوطن ، حتى يشعر العمال أنهم يعملون من أجل شئ محدود . ومن الناحية الاجتماعية ترقية أحوال المعيشة وتأمين العمال اجتماعياً . ومن الناحية الاقتصادية تنسيق مصادر الثروة فى الأمة وحسن توزيعها .

اللائق والواجب

لم يسبق له رؤية القاهرة ، فهو أجنبى من باريس ، قال لى ما هذا ؟ قلت هذه جنازة ، وقد اختلف إليها المشيعون ، ووقفت من أجلها حركة المواصلات . قال : أيفعل الناس ذلك بدافع اللائق أم الواجب ؟ فقلت على الفور إنه الواجب .

ولما أخذت أفكر بيني وبين نفسي ، رأيت أن الأمر ليس في هذه السهولة التي أجبت بها ، إذ ما الفرق بين اللائق وبين الواجب ، وهل يمكن أن تصدر أعمالنا عن شيء آخر غير اللائق وغير الواجب .

نعم كثير ما نفعل دون أن ندري لأي غرض ، أعني نصدر عن الإلف والعادة بدون تفكير أو شعور ، فنصبح كالآلة التي تدور وتجري بقوة الدفعة الأولى ، وهي في آخر الأمر آلة ، ولذلك قيل إن أغلب أعمال الإنسان آلية ، وذهب عالم نفساني اسمه بيير جانييه إلى القول : بالآلية النفسانية ، ولكن مذهبه لم يحظ بالشهرة ، مع أنه على حق .

والفاصل بين الإنسانية والحيوانية هو الخروج على هذه الآلية التي ينعدم معها الشعور .

ونعود إلى أعمالنا التي نفكر فيها ، ونشعر بها ، أتكون في سبيل اللائق أم الواجب .

وعمل اللائق هو اختيار الجميل ، كما قال القدماء منذ أفلاطون إلى الفارابي وابن سينا . وكان أفلاطون يطلب أموراً ثلاثة هي الحق والخير والجمال . واشتق العرب من الجمال الفعل فقالوا : هذا يجمل بنا وهذا لا يجمل ، أي هذا يليق وهذا لا يليق ، فكان القدماء يراعون الجمال في سائر أعمالهم ، ويتجنبون القبح ، ويوحدون بين الحسن والخير ، وبين القبيح والشر .

فإذا طبقنا هذا المبدأ على أعمالنا الآن رأينا أنها تبعد عن الحسن والجمال واللياقة . تضرب الحكومة الأرض وتخرج ما في بطنها بحجة إصلاح المياه أو التجارى أو التليفون ، ثم تترك أحشائها على ظاهرها قذى في العيون ، وليس هذا من اللائق في شيء ، مع أن الأصوات قد بحثت تطالب بتغيير هذه الحال . ثم تنظر إلى كثير من الشوارع وقد خلت من الأشجار على جانبيها فذهب عنها روائها وجمالها . وقل أن تجد صاحب دار يفكر حين يشيدها أن يزرع فيها حديقة يجعلها بها ،

أو يضع الزهور داخل حجرات الدار . وتقع العين على الناس وهم في ملابس
قدرة ، وهيئة زرية ، مما يتنافى مع أبسط مبادئ النظافة والترتيب .

هذا في الأعمال الظاهرة ومظاهر العمران ، أما في الأعمال الخلقية فالأمر
أدهى وأكثر قبحاً . فانتشار الرشوة والمحسوبية والكذب والخديعة والحسد وما إلى
ذلك ، كلها أخلاق لا تليق بمن يزعم الرقى والنهذيب .

ويمكن أن ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى هي زاوية الواجب .

وأول من فطن إلى أهمية الواجب وجعل الأعمال الأخلاقية مستمدة منه ،
هو كانط الفيلسوف الألماني ، فقد كانت حياته صورة من فلسفته ، وسيرته مستمدة
من مبدأ الواجب الذي نادى به . عاش في القرن الثامن عشر ، وامتدت حياته
إلى الثمانين ، ولم يرحل ، ولم يتزوج ، وأخضع حياته اليومية لنظام دقيق لا يتحول
عنه . ففي الساعة الخامسة إلا خمس دقائق بالضبط ، صيفاً كان الوقت أم شتاء ،
يدخل عليه خادمه في مشية عسكرية ثم يصبح بصوت عال . لقد حان الوقت ، ويطيع
كانط هذا النداء كأنه الجندي في الجيش ، فلا يتأفف أو يضجر ، ولو ظل طول
الليل في أرق . وفي الخامسة يجلس إلى المائدة فيتناول فنجانا واحداً من الشاي .
ثم يدخل بعد ذلك غليوفا لا يدخلن بعده طول اليوم . ثم يذهب حول الساعة
إلى حجرة المكتبة ، وفي الساعة الواحدة إلا ربع بالضبط ينادى الطاهى قائلاً
لقد دقت الساعة . وإذا خرج للترهة بعد الظهر ضبط الناس ساعاتهم على ميعاد
خروجه ، أشد دقته في ضبط الميعاد وإخضاع نفسه للنظام .

هذه السيرة صورة من فلسفته في الأخلاق ، أو الواجب الذي يقصد لذاته ،
الواجب الذي يصدر بإرادة الإنسان فيكون القانون الذي يخضع له ويخضع
العالم معه . ولقد غير كانط مذهب الأخلاق تغييراً كبيراً ، بعد أن كانت قبل ذلك
تقوم على أساس العرف أو التقاليد أو اللذة أو الجميل .

ولقد أثرت هذه الفلسفة في الأمة الألمانية أعظم تأثير خلال القرن التاسع عشر

والقرن العشرين ، فأصبح الشعب ، كما هو معروف ، أعظم من يخضع للنظام ، وأشد من يسرع أهله إلى أداء الواجب بدون تفكير في مصلحة أو منفعة أولدة . ولقد اعترف العالم بأسره للشعب الألماني بالتفوق والامتياز ، وكاد أن يتغلب على سائر الدويل ، لولا هزيمة الأخيرة في الحرب ، التي تضافرت سائر الأمم على إيقاعها به . ونحن نرى أن لفظ الواجب يجرى على الاستثناء ، ولكننا نقصد به شيئا آخر خلاف الواجب الفلسفي الذي حدثتك عنه . فالواجب الذي نقصده هو العرف الاجتماعي ، ولذلك يقدم أحدها لصاحبه سيجارة فيقول هذا واجب ، أو يقدم لضييفه فنجاناً من القهوة . وارتفعت الرشوة ، وهي عمل يناهى الأخلاق ، إلى مرتبة الواجب ، فأصبح من اللازم إذا قضيت حاجة في وزارة أو مصلحة أهلية أن تقدم الواجب ، إلى الموظف الذي يقوم بالعمل . ومن الدلائل على ذلك أن إحدى دور السينما الأجنبية تقول في إعلانها : لاتعط الخدم بقشيشاً لأن الدار تجزل لهم العطاء .

أما الواجب الذي نقصده فليس مفروضاً من المجتمع على الفرد ، بل هو نتيجة اعتقاد الفرد في ضرورته ولزومه وقيمه الخلقية . ولن يستقيم لنا أمر إلا إذا جرت أعمالنا لأنها واجبة ، بصرف النظر عن عواقبها ، فنقول الصدق لأنه واجب ، ولانسرق خضوعاً للواجب ، وهكذا .

غير أن من عيوب هذا المذهب أن الواجب الذي نفرضه ، وقد يكون خيراً اليوم لأنه يلائم الظروف الحاضرة ، قد يتغير مع تغير الظروف ، وبخاصة الواجبات الاجتماعية . فهذه الأمثلة التي ضربناها من الاحتفال بالجنائزات ، والاحتفاء بالضيوف ، والإكثار من التحيات ، تليق بالشعوب في مرحلتها الزراعية لا في حياتها الصناعية التي يزيد فيها عدد السكان ، وتشابك المصالح ، ولا يفرغ الواحد لهذه المظاهر الخارجية التي تضيع الوقت .

ولذلك كان مذهب اللاتقأجل وأوفق ، فهو يسائر الأحوال المتغيرة ، والمجتمع

الدائم التطور ، ولا يتنافى مع الواجب بل هو أساسه . وأحسن مثال لذلك ما حدث
فى إنجلترا وألمانيا فى هذه الحرب من تدمير المنازل ، حتى لقد قيل إن ثلث بيوت
لندن تهدمت ، ومع ذلك لم يمض إلا وقت قصير حتى أزيلت الخرائب المتهدمة ،
وزرعوا مكانها ، فلم يعد يحس أحدا أن هنا وقعت الواقعة .

ونحن نرى فى مصر خرائب الأوقاف منذ سنين ، ولا تزال قائمة عنوانا على
عدم اللياقة .

التربية الصحيحة

دار الحديث بينى وبين أحد العمال ، وهو أمى شيخ له أولاد كثيرون ، سألته
عن حال أولاده فأجاب أن ابنه الأصغر طالب فى المدارس الابتدائية . قلت له
وهل هو مجد ، وماذا تنوى أن ترسم له من مستقبل ، هل تلاحقه بالمدارس الثانوية
ثم العالية ؟ فأجاب جوابا فيه حكمة الفطرة السليمة ، قال : ليس للولد رغبة فى العلم ،
والعلم لا يطلب إلا بالميل ، وكل ما يميل إليه المرء يتقنه ، وقد سألته أن يبقى حتى يتم
التعليم الابتدائى ثم يتعلم صنعتى فأبى ، ورغب فى تعلم صناعة الميكانيكا فوعده بذلك .
هذا رجل على جهله حكيم ، سليم النظر والإدراك والحكم .

أما أغلب المصريين — مع الأسف الشديد — حتى لو كانوا متعلمين ، فإنهم
أقل منه إدراكا وأفسد حكما . ذلك أن أغلب الناس يطلبون لأبنائهم مستقبلا
لا يستند بحال من الأحوال إلى رغبات الطفل واستعداداته وميوله . فهذه أم أو هذا
أب ، يرسم لابنه أن يكون طبيبا أو مهندسا أو مزارعا ، كأن أى مهنة من المهن
يمكن أن تشتري كما تشتري السلع . وهذا هو السر الأعظم فى فشل سياسة التعليم
عندنا ، لأنهم يلحقون الطفل بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية لإعداد له أن يكون
صاحب مهنة خاصة ، وقد يكون أبعد الناس عن الاستعداد لهذه المهنة ، فيرسب
مرة ومرتين ومع ذلك يلح عليه أهله ويصطفون له المدرسين الخصوصيين لتقويته ،

والنتيجة هي الفشل التام ، حتى لو حصل على الدبلوم وأصبح طبيباً أو مهندساً وما إلى ذلك .

لماذا لا نترك الناس أحراراً في اختيار أعمالهم ، مادامت شريفة . والحرية أساس النمو والتقدم . وقد كان هذا هو شأن المسلمين في عهودهم الأولى ، واستمر ذلك التقليد إلى عهد قريب ، حيث كان الأزهر ، وهي أعلى معهد علمي ، يقوم على الحرية التامة في التعليم . يجلس الشيخ لتدريس الحديث أو الفقه أو التفسير أو النحو أو البلاغة ، ويختلف إليه الطلاب فإذا لم يحب أحدهم درس الشيخ تركه لي ذيره ، ولا يتقيد الطالب بحضور أو غياب ، ولا يتقيد بسنة دراسية ، وقد يظل طالبا حتى يبلغ الخمسين أو الستين من العمر .

واست أدري أنقدم التعليم في الأزهر بعد أن عدل من طريقته ، وقيد نفسه بالمناهج والخطط ، أم أن نظامه القديم القائم على الحرية التامة هو النظام الأفضل . ولا يتقيد التعليم في أوروبا وأمريكا بهذه القيود التي يفرضها الآباء على الأبناء . كل ما في الأمر أنه ظهرت مقاييس جديدة تقيس ميول التلميذ وتعرف اتجاهاته ، فتوجهه الوجهة الصحيحة . ولكنهم يتركون الطفل أو الشاب حراً ، واسع الحرية في اختيار طريق العلم الذي يؤثره .

إن مثل الطفل كاشجرة التي تحتاج في نموها إلى الأرض الواسعة والهواء الطلق لتتفرع في حرية . فإذا منعت عن الشجرة الماء والهواء أو المكان اضطرب نموها وعجزت .

أذكر عن نفسي مثالين يبينان كيف ماتت في نفسي نزعات لست أدري لو سارتهما ماذا كنت أبلغ بعد ذلك . ففي الثانية عشرة كنت أقرض الشعر ، وهو شعر على أي حال ، لست أدري أمورون هو أم ليس موزونا ، ولكني أذكر أنه كان هجاء في بعض الزملاء . وكنت أحب أن أقرأ الشعر وأحفظه ، حتى إذا تقدمنا في الدرس ، فرض مدرس اللغة العربية علينا شعراً سقيماً لا تقبله نفس ناشئ في السنة الأولى

الثانوية . وهل يستطيع تلميذ صغير أن يتذوق قصيدة النابغة ، أفاطم لو شهدت بيطن خبت ، . فضلا عن فساد الشرح . وانتهى الأمر إلى كراهة الشعر ، والانصراف عنه ، إلى درجة أنني لا أستطيع أن أمضي في قراءة قصيدة إلى نهايتها ، ولا أحفظ إلا البيت أو البيتين . والخلاصة أن الحفظ يقوم على الميل ، وأن ما تكرهه لا يثبت في الذاكرة ، وهذه قاعدة هامة في الحفظ . والتذكر . فلما ذهبت إلى الجامعة كان الدكتور طه حسين يلقي درساً عاماً في الشعر الجاهلي وكان يدرس النابغة الذبياني ، فرأيت لأول مرة كيف ينبغي أن يدرس الأدب ، وأحببته ، ولسكني لم أحضر إلا عاماً واحداً ، وكان الميل قد مات في نفسي .

ورغبت في الصغر إلى تعلم الموسيقى ؛ وتعلمت السكّان ، وكان المدرس يعزف المقطوعة مرة واحدة فيلتقطها ذهني وأعيدّها بأصبعي ، حتى بلغت درجة لا بأس بها فهل تدري مَنْ قَتَلَ في نفسي هذا الميل وصرفني عن الفن ؟ إنه والذي — رحمه الله — كان يقول كلما رأيته أحمل السكّان ذاهباً إلى المدرس ، هل تريد أن تصبح «آلاتياً» ؟ وكان أهل زمان يعدون الفنون الجميلة كالتمثيل والموسيقى والرسم ضروباً من اللهو والفسوق والمجون فضلاً عن مجافاتها لروح الدين . وهذه نظرة خاطئة ، لم تتعدل حتى الآن تعديلاً تاماً .

وكان أيلشتين يهوى الموسيقى ويقرض الشعر ، وتعدّه المدرسة من أفضل التلاميذ وأخيههم ، حتى لقد تألم والده من التقارير التي كانت ترسلها المدرسة في كل شهر عن غياب أيلشتين وتأخره عن غيره من التلاميذ . فلما بلغ السادسة عشرة من العمر ، قال له أبوه يجب أن تكسب حياتك وتصبح نافعا فتتعلّم مهنة الآلات الكهربائية . وسخر الابن من هذه الفكرة ولم يرض بها ، واستمر في هوايته الخاصة وهي قراءة الفلسفة والرياضة والتأمل في أسرار السكون ، حتى أصبح أعظم عالم في العصر الحاضر .

ولم يكن نيوتن في حدّاته يبشر بنجاح ، وكان ينصرف إلى قرص الشعر

وقراءته وإلى الرسم ، ولكن أهله لم يعتقدوا في نجاحه ، ولشقاوته ، وأحبوا أن ينصرف إلى الزراعة ، فأخرجته أمه من المدرسة ، وأرسلته إلى الريف في الحقل . وكانت ترسله مرة في كل أسبوع إلى السوق مع الخادم ليتعلم البيع والشراء . غير أن نيوتن كان يتخلص من الخادم ، فيدعه يذهب وحده إلى سوق المدينة ، وينتظره عند شجرة يقرأ كتبه التي يحبها إلى أن يعود . وشك عمه في سلوكه فذهب يستقصي أمره ، فذهب إلى السوق فرأى نيوتن جالسا تحت الشجرة فوق الحشيش يحل مسألة رياضية ، فقال : « عد إلى دروسك والله وحده يعلم أنك كون عالما كبيرا ، أم فاشلا في حياتك » . وأصبح نيوتن أعظم عالم ، وصاحب قانون الجاذبية .

ولو أننا نظرنا في سيرة العلماء لوجدنا حياتهم في الأغلب على هذا النسق ، وبخاصة العباقرة منهم ، فلماذا نقيد الطفل ونفرض عليه مالا يحبه ومالا يميل إليه .
والتربية الصحيحة هي التي تتكشف ميول الشخص ، فتعمل على تنميتها وتغذيتها في جو من الحرية التامة ، ولا يمكن أن يفرض العلم فرضا على العقول .

من الشغور

الضالة المنشودة

النفس والروح

انتقال الفكر

الاتصال الروحي

الآحلام

الرؤيا الصادقة

الضالة المنشودة

الناس اليوم في حيرة . وهي حيرة ناشئة عن القلق ، والقلق كما نعرفه مستمد من الخوف . فإذا كان الناس في حيرة ، وقلق ، وخوف ، فلم الحق كل الحق ، وينبغي أن نلتمس لهم العذر . فلا تزال آثار الحرب الماضية قريبة من الأذهان ، ولا تزال الجروح الدامية ماثلة الأبصار ، لا في مصر وحدها ، بل في سائر أنحاء العالم . بل لعل آثار الحرب وأخطار الغارات أقل في مصر منها في غيرها من الدول الأوروبية التي اجتاحتها قنابل الطائرات وغيرها من الأسلحة الفتاكة المدمرة التي لم نعرف البشرية لها نظيرا من قبل .

ولعل أهم أسباب الحيرة والقلق ، والخوف بل الفزع ، هو ذلك السلاح الجديد الذي لم يتم بعد خمس سنوات من عمره المشثوم ، ونعني به القنبلة الذرية . ولعل الناس في فزع أشد من أسلحة أفك وأشد دمارا من هذا السلاح الذي لمس الناس آثاره ، وسمعوا أخباره .

فإلى أين المصير ؟

أن تكون على عتبة الآخرة ؟ وهل نعيش لئلا نرى اليوم الموعود ؟

ألسنا نرى هذه الأسلحة تفك بالآلاف بل الملايين ، ولعل فيها القضاء على البشرية بأسرها ، فلا يبقى على وجه الأرض كما كانت تحدثنا أساطير القدماء ، ديار ولا نافخ نار ؟

وإني لا أتصور نهاية هذا العلم الإنساني وخاتمة هذه الحضارة التي خلقها الإنسان — كما يحدثنا التاريخ — في عشرة آلاف من السنين . منذ أن اهتدى إلى النار وإلى السلاح بشحذه من الحجر ثم من النحاس ثم من الحديد ، أتصور أن نهاية العالم لن تكون بفناء الأرض وتناثر أرجائها في أجواز الفضاء ، أو باصطدامها مع كوكب من الكواكب يدها هباء منشورا أو هشيما تذروه الرياح ، ولكنني أتصور

بكل بساطة ، أن خاتمة الإنسانية بيد الإنسان . وأن آخرة الحضارة والمدنية تلك التي ابتدعها العقل البشري ، وخلقها خلقا ، حتى لقد خيل إليه أنه شريك لله في خلقه فكفر ، ولم يؤمن إلا بنفسه ، سوف تكون من صنع هذا العقل نفسه الذي أشاد البناء وأقام الحضارة على أساس عجيب من العلم العميق بطبائع الأرض وبذلك تنقرض الجماعة البشرية وتصبح أسطورة في جوف التاريخ كما ذهب أهل عاد وثمود وغيرهم من أصحاب الحضارات التي حدثنا الله تعالى عنها في كتابه العزيز ، وأثبت علماء الآثار وجودها بما اكتشفوه على وجه الأرض وفي جوفها من مظاهر المدنية الغارة .

ولنا أن نتساءل ، وهذه هي الحال التي وصفناها ، والصورة التي نلسمها ونراها ، وهي حالة كما رأينا تبعث على الحيرة والقلق والخوف والفرع .

ما السر الذي يدفع الإنسان لأن يفعل هذه الأمور ؟ وما الدافع الذي يسوقه إلى أن يؤذي نفسه ويضع حداً لحياته ؟

وسؤال آخر : هل يمكن إذا عرفنا العلل والأسباب ، وشخصنا الداء ، أن نصف الدواء ، الذي يشفي الصدور من هذه الأدوية العنيفة ، المتأصلة ، القاضية ؟ أما عن السر الدافع للإنسان ، فإنه يكمن في نفسه التي بين جنبيه . ولكننا خرجنا من سر أصغر إلى سر أعظم .

ما هذه النفس الإنسانية التي توسوس له بالشر ؟ وتدفعه إلى أعمال العنف والقسوة ، وإيذاء بني جنسه مما لا نجد له نظيراً في عالم الحيوان ؟

نحن نرى أن الحيوانات التي تعيش بغريزتها لا يعتدى بعضها على البعض الآخر في داخل النوع الواحد ، بل قد تتحارب الأجناس ولكنها تتألف فيما بينها ولا يقضى بعضها على بعض الآخر لأنها تعرف صالحها بالفطرة أو الغريزة . أما الإنسان فإنه بغريزته يعمل على حفظ بقائه من كل شيء يهدد كيانه حتى إذا اهتدى إلى نفسه ، وأحس بها وشعر بوجوده ، وأخذ يوجه أعماله بمقتضى العقل ، إذا به يأتي من

الأعمال ما يحالف الطبيعة نفسها التي قضت أولا وقبل كل شيء بالبقاء والوجود لا بالفناء .

فالنفس إذن ليست شيئا آخر إلا الشعور بالوجود . وشعور الإنسان بوجوده هو الشر . وهو مصدر الحيرة ، والقلق ، والاضطراب .

ولقد ظهرت قبل الحرب الأخيرة بفترة وجيزة في ألمانيا وفي فرنسا فلسفة حديثة جدا تسمى « الوجودية » ، زعم أصحابها أن هذا المذهب هو نهاية الفلسفة لأنه يمثل شعور الإنسان بوجود نفسه ، فماذا كان من أمر هذه الفلسفة ؟ إنها فلسفة مبهمة لأن النفس الإنسانية مهمة ، غامضة ، لم يستطع العلم منذ أقدم العصور إلى الآن أن يحلها أو يقول فيها كلمة صريحة ، واضحة ، حاسمة . فلما سئم العلم الكلام في النفس ، ورأى أنه لن يستطيع أن يبلغ منها علما أو يكشف عن سرها الغطاء ، قصر نفسه على النظر في السلوك الظاهر الذي نشاهده في الناس ، فأخذ يصف أعمالهم وأزياءهم ومظاهرهم ، ولكن الكلام في الظاهر لا يكشف عن الباطن كاشفا تاما .

وبقيت النفس لغزا لا يحل . ولذلك كانت الفلسفة الوجودية أشد ضروب الفلسفة غموضا ، وأكثرها تعقدا ، لأنها تحاول كشف الستار عن النفس البشرية العجيبة التي نلِس آثارها ولا نراها . ومن آثارها التي نشاهدها هذه الألوان من الشر الذي لم يعرف التاريخ له مثيلا . وهل يوجد ما هو أقوى من إبادة الإنسانية شرًا ؟ ولذلك نرى أن عالم اليوم سوف يعود مرغما إلى أحضان الدين ، لأن تقدم العلم العظيم ، وما جلبه للإنسانية من حضارة جميلة ، مريحة ، في المسكن والملبس وسائر ضروب الحياة ، كل ذلك لم يبعث الطمأنينة إلى النفس بل أحل محلها هذه الحيرة وهذا القلق ، وهذا الشك ، وهذا الخوف الذي يتردد بين جنوب الناس جميعا .

بقى أن نجيب عن السؤال الثاني وهو : هل يرجع الناس عن غيهم ويغمدون سيوفهم ، ويتحولون عن طريق العلم الذي هو مصدر الشر ؟ أظن لا . بل أعتقد

أن العالم سائر في تيار جارف نحو العلوم ، وأن هذا التيار هو الذى سوف يقضى على الجماعة البشرية التى عمرت وجه الأرض وبلغت فى حضارتها الأوج ، بل إنى لأعتقد اعتقاداً جازماً ، ليس قائماً على الوهم والخيال بل على استقرار التاريخ نفسه ، أننا نشهد فى هذا العصر نهاية العالم .

فهل اقتربت الآخرة ؟

لعل هذا الاحساس ناشئ عن زعة من نزعات التشاؤم ، أو عن نظرة سوداء وزجو ألا يكون هذا الإحساس صادقا .

ونعود إلى الدواء الذى وعدنا أن نصفه للخلاص من ذلك الداء ، وهو شعور المرء بوجود نفسه ، أو بلغة الأدب الاعتزاز بالنفس .

لا يوجد إلا دواء واحد ، أن ينسى الإنسان نفسه ، فيعمل لغيره ، وبذلك تقف الحرب ويحل السلام . واسكن هذه القضية ما زال معروضة أمام العالم ولم يصل فيها الساسة أو الشعوب إلى نتيجة . فكل دولة تتمسك بنفسها ، ولا تريد أن تنزل عن شيء من مطالبها . ولا ندرى على أى نحو سوف يصنع ذلك السلام . كأن العالم الذى برع فى اختراع القنابل الذرية عاجز عن اختراع ذلك الدواء السهل اليسير الذى يتناوله الناس ، فيحل السلم محل الحرب ، وتبتدد هذه الأحوال النفسية التى تؤرق الناس فى مضاجعهم وهى أحوال الحيرة والقلق والخوف والفرع ... ترى هل يصل أو يبلغ الإنسان إلى هذه الضالة المنشودة ؟

النفس والروح

اعترض على إنكار الزعم بوجود الروح منفصلة عن الجسم كثير من الأصدقاء المؤمنين بهذا الأمر ، وقالوا لا يجوز أن ينكر مثلك ، وقد آمن من قبل السير بولفرلودج وأمثاله .

وقبل أن أسوق هذه التجارب الشخصية التي لم أعلنها ولم أدونها بعد ، أحب أن أذكر أنني لا أميز بين النفس والروح ، فهما عندي بمعنى واحد . وقد وُحِّد القدماء بينهما تارة ، وفرقوا تارة أخرى ، أما الذين ميزوا بينهما فقالوا إن النفس إنسانية والروح إلهية ، النفس أمانة بالسوء وهى مصدر الشر ، والروح من أمر ربى ، وهى مصدر الخير . وللقوم تعريفات وتميزات لا يعنيننا الدخول فى تفصيلاتها الآن .

وأحب أن أضع بين يديك خلاصة مذهب أفلاطون وأرسطو فى هذا الموضوع ، لأنهما يمثلان قطبين متعارضين ، يعتقد أفلاطون بثنائية الإنسان المركب من نفس وبدن ، وهو يتابع فى هذا اعتقاد أسناده سقراط وفيثاغورس من قبله . وله أدلة على خلود الروح وبقائها بعد فناء البدن ذكرها فى محاوره مشهورة بعنوان فيدون ، نقلها إلى اللغة العربية صديقنا الدكتور زكى نجيب محمود . أما مذهب أرسطو فالنفس عنده مبدأ الحياة ، أو هى مجموع الوظائف الحيوية ، فهى فى النبات علة التغذية والنمو والتوليد ، وفى الحيوان علة الإحساس والتخيل والنزوع ، وفى الإنسان علة التعقل .

مذهب أرسطو أدنى إلى العلم الحديث ، ومذهب أفلاطون خلاصة أساطير القدماء ، ولا يثبت بالمشاهدة ، وقد يؤيد بأدلة عقلية يصعب ترجيحها لدى ذوى العقول الراجحة .

والمشاهدة أصدق دليل على كل حال ، وهى سبيل اليقين العلى ، ولو أن هناك أموراً لا سبيل إلى الشك فيها علمياً ، ومع ذلك لا يمكن مشاهدتها بل تدرك آثارها فقط .

وأعود إلى نفسى أقصد شخصى ، أذكر ما وقع لى من تجارب .
فى سن العاشرة ، أو على التحقيق الحادية عشرة ، وكنت صبيّاً لم أدخل سن الشباب توفيت والدتى فحزنت لوفاتها حزناً شديداً . وذات ليلة ، وقد أويت إلى

فراشى حول الساعة التاسعة ، وقد تدلت السكلة فوق السرير ، ولم يكن الضوء كهرباء بل مصباح غاز قد خفت نوره ، ذهبت فى النوم أو شرعت فى الدخول إليه . ومن الطبيعى ، وأكبر الظن أن هذه هى طبيعة أغلب الناس ، أننى لا أستغرق فى النوم مباشرة ؛ بل أظل فترة قد تطول قبل أن أغيب عن الحس . فى هذه الفترة بين اليقظة والنوم ، وفى هذه الظروف المحيطة بـ من نور خافت ، وشبه غيبة ، إذا أبى أرى شبح أمى كأنه طيف أو خيال ، هو على التحقيق هيكلها أو جسمها إلا أنه يخلو من المادة بحيث لا يتبقى إلا الإطار الخارجى يملؤه النور ، ثم اقترب هذا الهيكل النورانى بسرعة حتى اخترق الناموسية ، ونفذ إلى داخل السرير ولمس وجهى ، أعنى أنى أحسست به ، ثم عاد بسرعة كذلك ، واختفى إلى غير عودة اضطربت بعض الشيء ، ولكنى لم أخف أو ارتعب .

هذه هى التجربة الوحيدة التى حدثت فى تاريخ حياتى ولم تتكرر بعد ذلك ، ولم أحكمها لاحد قبل الآن . وظللت أفكر فى هذا الموضوع ، أياكون ما شهدته جداً وحقيقة ، أم وهما من تصوير الخيال .

ويقول الروحانيون : هذه حقيقة لا شك فيها ، وهذه هى الروح تختلف عن المادة الكثيفة الغليظة التى نشاهد عليها الأجسام المحسوسة المادية كالخشب والحديد أو أبداننا الحاضرة ، ولا تقوم إلا على هيكل نورانى يحد بمحدود الجسم ، وقد يتجسد إلى حد ما ، وبذلك يمكن رؤيته ، ويضيفون إلى ذلك أنهم استطاعوا تصوير الأرواح بالفوتوغرافيا .

ويقول المعارضون للمذهب الروحانى : هذه أضغاث أحلام ، وأوهام فى أوهام ، وهلوسة من خلق الخيال ، وهى أشبه بالرؤيا التى يشاهدها النائم ، وكثيراً ما رأى أحدهنا فى النور صور أهله يزورنه فى الأحلام ، وليست الرؤيا أرواحاً . وانتقل إلى تجربة ثانية قريبة العهد ، إذ وقعت لى منذ شهر على وجه التقريب .

فقد اضطجعت ليلاً كي أدخل في النوم ، ومرت فترة بين اليقظة والنوم ، وأنا مغدض العينين ، ثم أخذت أفكر في النفس وما يقال من أنها شيء يلبس الجسم كما يضع المرء الثوب على البدن ، وأنها مما يمكن خلعه كما يخلع الثوب ، وركزت فكري في ذلك حتى رأيت « نفسي » تنخلع عن بدني ، وترتفع عنه في انسياب وهي بقدر البدن تماماً حتى ارتفعت عنه بمقدار ما يقرب من نصف متر ، وأحسست بهذه النفس أنها هي أنا ، ولا شأن لي بهذا الجسد الملقى تحتي ، واستمتعت حقاً بهذه النفس وبقيت على هذه الحال بضع دقائق ، ولم أستطع الانفصال ، فعدت بنفسى إلى بدني . وكررت هذا العمل مرة أخرى ، ولم أعد إلى التجربة بعد ذلك . ثم تساءلت بعد ذلك : لقد كنت أنظر إلى بدني ، وإلى نفسي المعلقة في الهواء فوق بدني ، فما هذا الشيء الذي كان يتأمل كلا من البدن والنفس ؟ أهو شيء آخر غير نفسي ؟ أم أن الأمر كله وهم من الأوهام .

أتدري ماذا يسمى الروحانيون ما فعلت ؟ إنهم يطلقون على هذه العملية « الطرح الروحي » ، أي أن تطرح الروح بعيداً عن الجسد المتصلة به ، وقد سمينا الروح والنفس شيئاً واحداً فيما قبل ، وعلل الأوفى أن نميز بينهما فتكون الروح هي التي انفصلت ، وبقيت النفس مع الجسم ، لأن مفارقة النفس للبدن موت وفناء . حكيت هذا لصاحبي فقال : دع عنك هذا التخريف .

وشبيه هذا التخريف ما ذكره أفلوطين الفيلسوف ، وهو غير أفلاطون ، عاش في الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، وله كتاب اسمه التاسوعات ، نقل إلى العربية في عصر الترجمة ونسبوه إلى أرسطو باسم كتاب الربوبية ، قال فيه مانصه « إني ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدني جانباً ، وصرت كائن جوهري متجرد بلا بدن ، فأكون داخلاً في ذاتي راجعاً إليها خارجاً من سائر الأشياء ، فأرى أن ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجباً بهتاً ، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الفاضل الشريف الإلهي ، ذو حياة فعالة ، فلما أيقنت بذلك ترقيت بذاتي من ذلك العالم إلى العالم الإلهي ، فصرت كائن موضوع فيها متعلق بها

ويقول الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في كتابه الإشارات : ارجع إلى نفسك وتأمل ، إذا كنت صحيحا بحيث تفطن للشيء ، فطنة صحيحة ، هل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك ؟ ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة ، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لا تنظر أجزائها ، ولا تتلامس أعضاؤها بل هي منفردة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق ، وجدتتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت أُنيتها . وهذا أحد براهين ابن سينا على وجود النفس منفصلة عن البدن ، ويسمى هذا البرهان ، الإنسان الطائر أو المعلق في الهواء .

فأنت ترى أن الفلاسفة قد تصوروا كما تصورت ، أو قل أنى تصورت كما تصوروا ، وإلكنهم صدقوا تصوراتهم وآمنوا بها واعتقدوا في صحتها ، أما أنا فلم أجد فيها أكثر من تصورات وخيالات .

انتقال الفكر

من الظواهر التي لفتت الأنظار من قديم الزمان ، ولا يزال المحدثون في حيرة كيف يعللونها ، انتقال الفكر من شخص إلى آخر ، أو انتقال الشعور ، أو التأثير عن بعد ، وهو ما يعبر عنه باللغة الأجنبية بقولهم التلباثي (Telepathy) وقد نقول عنه أيضا قراءة الأفكار فهي داخلية في هذا الباب ، لأن انتقال الفكر أو الشعور أصل ، وقراءة الفكر فرع من ذلك .

ويميز المحدثون بين انتقال الفكر وقراءته وبين الكشف أو الجلاء البصرى ، والمقصود من الكشف إدراك الأشياء في الحاضر عن بعد دون أن نراها ، كالذي يكون في القاهرة فيرى حادثة تصادم وقعت في الإسكندرية ، أو إدراك ماسوف يقع في المستقبل من أحداث .

أما انتقال الفكر فهو معرفة الإنسان ما في ذهن صاحبه بغير واسطة الحواس

المعروفة كالسمع أو البصر . ويعتقد كثير من الناس في إمكان ذلك ، وكان الاعتقاد بين القدماء شائعا في هذه الحقيقة ، نعى أن ما يعمله أحدهم أو يفكر فيه يؤثر في غيره تأثير أمعينا مع بعد المسافة بينهما . بل لا يزال هذا الاعتقاد سائدا في الشعوب البدائية التي تعيش في العصر الحاضر ، وفي العامة من الناس .

وقد ترتب على هذا الاعتقاد أن سلوك القدماء والبدائيين والعامة ، من حيث عوائدهم وتقاليدهم ، يخضع لعقيدة انتقال الفكر والتأثير عن بعد ، ويعرف ذلك عندهم بالسحر

ومن عادات بعض القبائل أن رجالها حين يخرجون طالبا للصيد ، يمتنع أطفالهم في السكوخ من الرسم على الأرض حتى لا تضلل هذه الرسوم طريق الصيد فيعجز عن العودة إلى داره .

ويحكى عن نساء الهوتنتوت أن أزواجهن حين يذهبون إلى الصيد ، يشعلن النار ويغذيها بالوقود حتى لا يقع الأزواج في مكروه . أما نساء الهايدا ، فإذا ذهب أزواجهن إلى الحرب ، لا ينقطعن عن الرقص وغناء الحرب ، وإذا توقفت إحداهن قتل زوجها .

ولا يزال السحر الأسود شائعا في الريف المصري حتى اليوم ، ويعتقد في أثره الكثيرون . وهو ضروب كثيرة منها أن يصور الساحر صورة من يريد إيقاع الضرر به في قطعة من الشمع أو دمية من طين أو عروسة من خرق ، ثم يكتب عليها اسمه ، ويقرأ على هذا التمثال المرض الذي يريد أن ينزل به ، فلا يلبث الشخص أن يصاب بهذا المرض . وروى القدماء وعلماء الاجتماع أن الساحر يقطع التمثال في قلبه بحربة ، فإذا بالشخص يموت فعلا . وطريق إبطال هذا السحر أن يلجأ الشخص إلى ساحر آخر يبطل هذا العمل ،

والربط الجنسي شائع بين الفلاحين في مصر ، ويتكسب من هذه الصناعة كثير من المشعوذين .

وهذا كله وَهُمْ لَا ظِلَّ لَهُ مِنَ الْحَقِيقَةِ . وقد حضرت مرة مجلساً زعم فيه أحد الحاضرين البراعة في استخدام الجن ، وإبطال السحر الأسود . وروى أنه أطلق البخور وقرأ العزائم ذات يوم فإذا بالجن يحضرون ، عملاً ، كان مكتوباً على ضلع حمار ميت ملقى في أعماق النيل ، ولم يكذب يستحضر العمل حتى بطل السحر . قلت له إنى لا أصدق ذلك ، فهل تسمح بحضور جلسة من هذه الجلسات . وتهرب صاحبنا حين علم يقظتى وعدم إيمانى . فلا تصدق شيئاً من ذلك لأنها شعوذة ودجل .

وكما يعتقدون في إمكان إحداث الضرر ، يعتقدون كذلك في إمكان ربط القلوب برباط المحبة . وقد سمعنا عن قوم أنفقوا كثيراً من الأموال في سبيل اجتذاب قلب زوجاتهم أو حبيباتهم ، بوسائل من السحر . فإذا حصل تبدل في قلب المرأة نسبوا ذلك إلى أعمال السحر ، وقد يرجع ذلك إلى انتقال الفسکر ، والتأثير عن بعد . ومن المشاهد أن الذين يفعلون ذلك يخلون إلى أنفسهم في مكان هادئ . وفي عزلة تامة ، بل وفي الظلام في بعض الأحيان ، حتى يغيب الشخص عن هذا العالم المحسوس ليدخل في العالم غير المنظور . ويفعل الصوفية مثل ذلك حين يرغبون في الاتصال بالله ، ومنهم من يزعم الوصول عند الغيبة عن الوجود ، وهذا أيضاً من الأوهام التى تختلط بالعقول .

وإذا كان الناس في العصر الحاضر مع تقدم العلم وانتشار الحضارة قد انصرفوا عن الاعتقاد في السحر ، وعن التأثير في الآخرين من بعيد ، فإنهم يعتقدون في انتقال الفكر وإمكان قرامته . كان القدماء يلجأون إلى السحر لإخضاع قوى الطبيعة والتأثير في الناس ودفع الضرر وجلب المحبة ، أو بمعنى آخر فرض إرادتهم على كل شيء آخر . أما في العصر الحاضر ، فلم يبق من الاعتقاد في انتقال الفكر إلا هذه التسلية الاجتماعية التى يفعلها بعض الناس عندما يلعبون الورق ، وذهب عنه كل ماعدا ذلك من خرافات وشعوذة سحرية . ولا يبنى ذلك أن انتقال الفكر حقيقة من الحقائق الواقعة ، وأنه ظاهرة نفسانية تحتاج إلى تحليل وإلى تفسير .

ولا يزال جماعة من المحدثين يعتقدون في وجود الأرواح ، وفي أنها هي العلة في انتقال الفكر من شخص إلى آخر . وهذا أثر من اعتقاد القدماء بالسحر ووجود الأرواح ثم . لبست حلقات الروحانيين منذ القرن التاسع عشر ثوب العلم ، بل لقد اشتغل بها كثير من العلماء المعروفين في إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، وانتقلت هذه المباحث إلى مصر على نطاق ضيق . ويقوم جوهر هذا المذهب على الاعتقاد في بقاء الروح بعد فناء البدن أى بعد الموت ، وفي تأثير النفوس في النفوس وهي على قيد الحياة ، وفي إمكان انتقال الفكر وقراءته . وأنت تسمع عن جلسات تحضير الأرواح ، لأننى لم أشهد هذه الجلسات ولم يسمع لى المشتغلون بها حضورها مع إلحاحى في الطلب ، تسمع عن ظواهر غريبة من التنبؤ بالغيب والاتصال بأفكار الموتى ، نعى بأرواحهم التى تتحدث إليهم .

وزعموا أن هناك ظواهر مادية تثبت صحة ما يعتقدون مثل تحريك المائدة ، والكتابة من غير قلم ، والكلام من غير متحدث إلى آخر ذلك . ولكن المحققين من العلماء قد أثبتوا شعوزة كثيرين من المشتغلين بالمسائل الروحية ، ولا يزال هذا العلم قيد البحث والتجارب .

وإذا كان أغلب العلماء لا يعتقدون في إمكان هذه الظاهرة ، ويرتابون في حصولها ويعزونها إلى عدم الدقة في الملاحظة أو إلى التضليل والشعوزة ، فإن فرويد صاحب مذهب التحليل النفساني ، يفسر الاعتقاد في انتقال الفكر عند بعض المحدثين بأنه أثر من العقلية البدائية التى شاعت في الإنسان البدائي وفي الأطفال وفي المرضى بالأمراض العصبية . وهؤلاء جميعاً يسيئون تقدير قوة عقولهم ، إذ يرون في للفكر مرآة للعالم الخارجى ، ثم يضطربون بين عالم الفكر وبين العالم الخارجى وما فيه من نظام ، ويعتقدون أن الفكر البشرى يؤثر في الأشياء ، وهذا هو مصدر السحر ، وكثير من التقاليد القديمة ، وعلة الأحلام وأحلام اليقظة ، والسبب في أوهام الأطفال ، وتصرفات المرضى النفسانيين .

الاتصال الروحي

سألني أحد الفضلاء فيما كتبتة عن النظر والبصر والعين ، وأن العين نافذة النفس التي تطل منها ، والتي يمكن أن تفتحها فتتصل بنفس صاحبها فقال هل العين هي النافذة الوحيدة التي تنفذ منها إلى النفس ؟

أقول إننا نفترض وجود النفس افتراضاً ، لأنها حتى لو كانت موجودة ما استطعنا إدراكها هذا الإدراك المادى كما نرى الأشياء المحسوسة بالنظر . والامر كذلك فى الروح إن صح أنها موجودة . ولذلك كانت التفرقة بين النفس والروح أمراً عسيراً ، لأن كليهما غير معروف على التحقيق .

وأقصى ما ذكره المفكرون والفلاسفة فى هذا الموضوع أنهم وحدوا بين النفس وبين « الأنا » ، أو هذا الشيء الذى يوحد شخصيتك ويجعلك أنت أنت فى مختلف الأزمنة . فأنت أنت اليوم كما كنت بالأمس على الرغم من اختلاف مظهرك . بل أنت أنت حين كنت صبياً ، وحين أصبحت رجلاً ، وبعد أن انتقلت من طور الرجولة إلى طور الشيخوخة .

وهذا ما عناه ديكارت الفيلسوف بقوله « أنا أفكر أذن أنا موجود » . فقد شك فى وجود كل شيء حتى وجود جسمه ، ولكنه لم يستطع أن يشك فى وجود هذا الجزء المفكر الذى سماه « أنا » ،

وأظن أنك توافقنى على أن الأنا حقيقة لا شك فيها ، على خلاف النفس أو الروح . فلنصطلح على تسمية هذه الأنا بالنفس ونتواضع على وجودها ، ثم تعال نبحث أنا وأنت فى أنفسنا .

كيف أعرف نفسك . وكيف أتصل بها اتصالاً مباشراً ، لاعتن طريق المظاهر الخارجية التى تبدو منك فى هذه الأعمال الكثيرة التى تصدر عنك ، والتى نجتمعها ونستدل منها على شخصيتك . ولعلنا نريد أن نتخطى المظاهر إلى البواطن

كما فعلنا في النظر من خلال العين نفتحها لنصل إلى النفس .
فهناك سبل أخرى للاتصال أو للتراسل ، بين النفس والنفس ، بين الشخص
والشخص ، بين أنا وأنت .

وأول رسائل الاتصال الكلام ، لأن اللغة طريق للتفاهم بين الناس ، وسبيل للتعبير
عما يجول في أنفسهم . والكتابة هي كلام مسجل ، فأنت حين تقرأ هذا الكلام
الآن إنما تتصل بنفسى ، أو أى أتصل بالقراء عن طريق الكتابة .

هذا هو الطريق الواضح المؤلف المعروف . والإشارة باليد ، أو التعبير بالعين
من وسائل نقل الأفكار على سبيل التأويل . ولغة العيون معروفة لدى العشاق إلا
أن هذه الأمور ملبوسة محسوسة ظاهرة . وهناك طريق خفى باطن يصل بين
شخص وآخر ، ويربط بينهما على بعد المسافة واختلاف المكان . روى لى صديق
أنه أحس ذات مساء باضطراب شديد وخيل إليه كأن أحد أقربائه فى ضيق
شديد ، وأنه يناديه ويستنجد به ، ولكن الشعور كان غامضا فعزاه إلى الوهم .
فلما أصبح الصباح عرف أن قريبه هذا أصيب بمكروه فى نفس الساعة التى أحس
فيها ذلك الإحساس .

• وكان أبى — رحمه الله — مريضا فى أواخر حياته مرضا شديدا ، ولم أكن
أسكن معه فى بيت واحد ، وكنت أزوره بين حين وآخر ، وذات يوم ولم أكن
عازما على زيارته نزلت من بيتى فى الصباح ، ثم تأخر الترام الذى أريد أن أركبه
وخطر ببالى أن أذهب لزيارة والدى ، ثم قلت فى بالى ولكنى لست معتادا أن أذهب
فى الصباح . فلأرجى الزيارة إلى بعد الظهر ، ولكن الخاطر ألح علىّ ، وإذا بى
أجدنى أتجه فى طريق والدى ، فذهبت إليه ، وكان ذلك اليوم هو اليوم الذى توفى
فيه ، قال لى والدى : كيف جئت لقد كنت أفكر فى حضورك ، لم أرغب فى
الاتصال بك عن طريق التليفون إذ تكون قد خرجت من الدار . وصرفت الحديث
إلى شيء آخر ، ولكنى عجبت فى نفسى بل تحققت أنه اتصل به اتصالا روحيا .

وقراءة الأفكار من هذا القبيل ، وقد حار العلماء في تعليلها . ذهب بعضهم إلى وجود الأرواح التي تنقل الفكر ، وذهب بعضهم الآخر إلى وجود سيال مغناطيسى يخرج من الشخص ويتصل بالشخص الآخر ، وآخر ما قرأت في تعليل هذه الظاهرة ، أن المخ البشرى أشبه بجهاز الراديو ، وهو جهاز إرسال واستقبال ، كما ترسل الإذاعات على أمواج الأثير ، طويلة أو متوسطة أو قصيرة ، كذلك ترسل الأفكار في الفضاء ، أو هي تنبعث عن صاحبها وتنتشر في كل مكان وتذهب إلى أبعد المسافات ، ثم يستقبلها المخ المهياً لاستقبالها ، وهذه نظرية طريفة لعل الوسائل العلمية تثبت صحتها ، فهي لا تفتقر وموافقة للعلم .

ومن الغرائب التي تحتاج إلى تعليل أنك تفكر في شخص من الأشخاص فإذا به بعد قليل يحضر أو تقابله في الطريق . وفي ذلك يقول المثل العامى : في سيرة القبط جه ينط . ولعل ذلك من قبيل المصادفات ، ولعل ذلك من باب الاتصال الروحى الذى نتحدث عنه ، أو هذا الطريق الخفى غير الملبوس .

ولا يتم هذا الاتصال عن بعد إلا إذا سبقت الصلة بين الشخصين ، وكلما كانت أوثق كلما كان الاتصال أشد ، مثل الصلة بين الأم وابنها ، والاب وابنه ، والأخ وأخيه ، والصديق وصديقه .

وقد قرأنا في القصص ، ورأينا في دور الخيالة ، روايات تحدثنا عن أم تنزعج بل تصحو من نومها ، وكأنها ترى ابنها قدماء أو أصيب في حادثة مفاجئة ، ويكون ذلك كله صحيحا ، مع أنها في بلد وابنها في بلد آخر .

وروى لى صديق هذه القصة الواقعية أسجلها لغرابتها قال : ذهب طالب في بعثة إلى إنجلترا يطلب العلم ، ثم تزوج من إنجليزية وعاد بها إلى مصر ، وأنجب منها طفلا ؛ وبعد بضع سنين هجرته زوجته في محبة ابنها ، ولم يعرف لهما مكانا ، ومرت الأعوام ونشبت الحرب الأخيرة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وفي يوم من الأيام أو على الأصح في ليلة من الليالى ، كان يجلس مع بعض أصدقائه في إحدى

الآما كن العامة يتنادمون على الشراب ، ودخل المكان شاب إنجليزي اتخذ مكانه قريبا منهم ، وبعد قليل أقبل عليهم ثم حياهم وطلب منهم المشاركة في المنادمة ، ثم سأل هذا الشخص الذي هجرته زوجته أي عرف فلانا ، فأجابه لماذا ؟ قال إنه يبحث عنه لأنه أبوه ، ثم قص عليهم قصته ، وأن أمه توفيت ، وعثر في أوراقها على ما يثبت نسبة أبيه فعزم على الحضور إلى مصر للبحث عنه ، وأنه وصل منذ يومين . والغريب في هذه القصة الاتفاق العجيب الذي يدفع الابن إلى المشرب ، ثم يدفعه إلى مشاركة القوم في شرابهم دون غيرهم ، ثم يدفعه إلى سؤال أبيه دون سائر الندماء .

فكيف نعلل هذه الظواهر وأمثالها ؟ أيكون مرجعها إلى المصادفة والاتفاق ؟ إلا أن العلماء الذين يحرون التجارب على هذه الأمور التي يسميها البعض روحانية ويسميها البعض الآخر ميتا بيسيشيك ، أو ما بعد النفس ، كما أوضحت ذلك في كتابي وفي عالم الفلسفة ، يقررون أن المصادفة بعيدة الوقوع . وذهبوا في التعليل مذاهب شتى ، منها قولهم بوجود حاسة سادسة ، هي التي تدرك الأشياء عن بعد كما يدرك البصر المحسوسات عن قرب بالعين ، وتنقل الأفكار بين الناس ، أو تنقل الشعور ، وجملة القول يتم بها الاتصال الروحاني بين شخص وآخر .

الأحلام

الأحلام من أغرب الظواهر النفسية التي لفتت أنظار الإنسان من قديم الزمان وحار في تعليلها . وقد اشتهر يوسف عليه السلام بتعبير الرؤيا وعله الله تعالى تأويل الأحاديث ، فلما سجن ، ودخل السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه . وفسر يوسف هذه الرؤيا فقال : أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصاب فئاكل الطير من رأسه . وصح تفسير يوسف فكأنه تلبأ بما يقع في المستقبل . وجرى

العرب في تفسيرهم للأحلام على أن الرؤيا قسمان ، صادقة وأضغاث أحلام ، فالرؤيا الصادقة كهذه التي رآها صاحب يوسف في السجن وفسرها له ، أما أضغاث الأحلام فهي كما يحدث به المرء نفسه من هموم وآمال مثل أن يرى الإنسان نفسه مع من يحب قلبه ، أو يخاف من شيء فيراه ، أو يكون جائعاً فيرى أنه يأكل . هذا هو رأى النابلسي في كتابه تعطير الأنام في تفسير المنام . وقد عدل المحدثون من علماء النفس عن القول بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل وتنذر عما يقع ، وقالوا وعلى رأسهم فرويد إن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها تحقيقها في اليقظة ، غير أن بعض العلماء في العهد الأخير أخذوا يجرّون أبحاثاً قد تفضي بهم إلى أن هناك رؤيا صادقة كما كان يزعم القدماء .

وقد سلك فرويد في بحثه طريقة لطيفة ، إذ نظر في أحلام الأطفال الصغار فرأى أنها استمرار لما يطلبون في اليقظة ، هذا طفل يحلم أنه يأكل قطعة من الحلوى ، وتعبير هذا الحلم أنه طلب الحلوى ولم ينلها فحقق رغبته في النوم في صورة من الحلم ، وهذا شبيه بما حدثنا به النابلسي من أن الجائع يرى نفسه يأكل . وبهذه المناسبة أذكر واقعة حقيقية قصتها على إحدى السيدات ، قالت إن لها طفلة صغيرة تبلغ من العمر ثلاث سنين ، استيقظت وهي نائمة وكانت إلى جانب أمها ، وأخذت تضربها وتضربها ، ثم سكّنت وعادت إلى النوم كأن لم يحدث شيئاً ، وظنت الأم أن ابنتها قد أصابها مس من الشيطان أو اختلط عقلها وأصابها الجنون ، قلت لهذه السيدة هل ضربت ابنتك في النهار ؟ قالت نعم ، قلت لها إليك تفسير هذا الحلم ، لم تستطع ابنتك أن ترد العدوان بالعدوان ، وأن تضربك كما ضربتها لأنك أقوى منها ، فحققت رغبته في المنام ، ومن الناس من يتكلم وهو نائم بصوت عال ، ومنهم من ينهض من فراشه ويمشي ويأتى بأعمال غريبة ، وهذا ما يسمى بالجلولان النومي ، كهذه الطفلة التي حدثتك عنها ، والعلة في ذلك هو الرغبة الباطنة في أداء عمل من الأعمال يعجز صاحبه عن أدائه في اليقظة فيعمله في النوم ، وقد يأتى هؤلاء القوم بأعمال في غاية الخطورة . يحكى أن مريضاً بالجلولان كان يستيقظ ،

نعني أنه يهض من نومه ولا يزال نائماً ، ثم يخرج من غرفته من النافذة ويمشي على كورنيش الدار ، ثم يعود إلى غرفته مرة ثانية ، ولو أنه استيقظ لزلت قدمه ووقع من أعلى الدار. وروى بعض الطلبة أنهم يهضون في الليل فينقلون كراسيات بأكلها وهم نيام .

وليس هناك فرق بين أحلام المنام وأحلام اليقظة ، فالأصل فيهما واحد هو الرغبة في تحقيق الآمال ، كل ما في الأمر أن العقل في النوم لا يكون يقظاً فتختلط الصور ويتركب بعضها فوق بعض ، وفي أحلام اليقظة يعمل العقل واعياً عن شعور ، هذا تاجر قد اشترى بضاعة يأمل في تصريفها والربح منها فيخلو إلى نفسه ويتخيل ذلك . أو كذلك الرجل الفقير الذي تحدثنا عنه القصة من أنه اقتصد سمناً وضعه في جرة وعلقه على الحائط فوق السرير ثم اضطجع وأخذ يحدث نفسه قائلاً : سوف أذهب يوم السوق أبيع هذا السمن ثم أشتري بشمه نعجة حبلى تلك بعد شهر عدة نجاج ، ولن أنكف في تربيتها شيئاً ، وعندما تكبر نحمل وتنجب نجاجاً كثيرة فأشتري بشمها بقرة تلد لي بقرأ كثيراً ، ثم أشتري قطعة من الأرض أزرعها وأقيم عليها داراً ، وأتخذ لي زوجة تلد لي غلاماً أحسن تهذيبه وتربيته ، وإذا لم يصدع لأمرى ضربته بهذه العصا وطوحها بيده فهوت على الجرة فكسرتها وسال السمن على وجهه . هذا مثال لأحلام اليقظة ، وأظن أن كل إنسان يفرج عن نفسه في هذه الصورة بمقدار ولو صغير ، فهي ولا ريب منفذ يتنفس منه المرء في هذا العالم الذي لا تنقطع فيه المطالب من مال وسلطان .

ويخطئ فرويد في زعمه أن العقل البشري عند النوم والأحلام يكون مختلفاً عنه في حالة اليقظة . الواقع أن الإنسان وهو نائم يحس بالعالم الخارجي ويدرك إلى حد ما ، فنحن ننام على أسرة نتقلب عليها ومع ذلك لا نقع على الأرض مما يدل على شيء من الانتباه ، وتنام الأم وسط ضوضاء شديدة ولكنها تستيقظ إذا سمعت بكاء طفلها . وتريد أن تستيقظ في ساعة معينة من الصباح على غير العادة فتستيقظ فعلاً . وهذا دليل على أنك تستطيع أن توحى إلى نفسك في حالة النوم

بأشياء تعماها كأنك في يقظة . وبناء على ذلك نحن نستمر في التفكير في المشكلات التي تواجهنا في أثناء النهار ، ولا نستطيع لها حلا ، في أثناء الليل في الأحلام أوفي أحلام اليقظة ، والفارق الوحيد هو أننا نعجز عن مواجهة الواقع فتهرب منه إلى الأمل والخيال والأحلام . وأحلام التلاميذ قبل الامتحانات هي من هذا القبيل ، فالامتحان المدرسي مشكلة يريد الطالب أن يتخطاها ، والحل لهذه المشكلة هو الاستذكار والحفظ وسهر الليالي ولكنه يخاف مع هذا العمل من الرسوب ، أو يزهد في الدرس ومع ذلك يرغب في النجاح ، عندئذ يحلم باجتياز الامتحان بنجاح غير أنه لا يرى الحقيقة في الحلم كما يراها في اليقظة ، أى يطالع على النتيجة معلقة في المدرسة أو يقرأها في خطاب رسمي وما أشبه ذلك من وسائل الإعلان ، بل يراها في صورة رمزية كأنه واقف على قمة جبل ، وهذا دليل على العجز وعلى الخوف من الفشل .

وكان القدماء من المفسرين يعبرون الرؤيا على ما سوف يقص في المستقبل . يحكى أن رجلا أتى ابن سيرين فقال : رأيت كأن خاتمي انكسر ، فقال إن صدقت رؤياك طلقت امرأتك ، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام حتى طلقها . وجاء ابن سيرين رجل فقال : رأيت في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال ، فقال : أنت رجل مؤذن تؤذن في غير وقت في شهر رمضان فتحرم على الناس الطعام ، وشبهه بذلك ما يذهب إليه فرويد زعيم المحدثين في تعبير الرؤيا ، فهو يذهب إلى أن الصور التي نراها في المنام رموز يلجأ إليها العقل الباطن بدون شعور ، بل قد يقع لنا مثل ذلك في اليقظة . روى فرويد أن سيدة نسيبت خاتم الخطوبة وظلت تبحث عنه دون جدوى وبعد أيام وجدته فوق حوض الحمام ، فلما قصت ما وقع لها على فرويد قال : الخاتم رمز الزواج ونسيان الخاتم دليل على الرغبة الخفية في كراهية هذا الزوج ، فكان كما قال .

وتختلف الرموز باختلاف الأشخاص والبقاع والأزمنة ، ولذلك ليس من الصواب أن يلجأ المفسر إلى قاموس الأحلام ، لأن ما يصلح لشخص لا يصلح لشخص آخر .

والمذهب الذى نختاره فى التأويل أن ننظر فى الحلم جملة لا تفصيلا ، ثم نأخذ ما يدل عليه جو هذا الحلم ، أى الأثر النفسانى الذى يحدثه ، وكثيراً ما أصاب القدماء فى تأويلهم لهذا السبب . أنت امرأة ابن سيرين فقالت كأنى قتلت زوجى مع قوم ، قال لها : إنك حملت زوجك على إثم فأتى الله . والمعنى أو الرمز هو أن هذه المرأة أذنبت فى حق زوجها وشعرت بجرمها فتصورت بعد التجسيم أنها قتلتها ، وهذا ضرب من الاستعارة . حكى أدلر تليد فرويد أنه كان يعالج المرضى العصبيين فى أثناء الحرب الكبرى ، فجاءه ضابط يطلب إجازة حتى يبتعد عن جهة القتال وكشف عليه أدلر فرآه سليماً ، فلم يوافق على الإجازة ، فلما أمسى الليل رأى فى المنام كأنه قتل إنساناً كان يجرى فى الظلام ، وظل يبحث فى الأزقة ليتبين من الذى قتله فلم يهتد ، فلما أصبح الصباح عجب لهذا الحلم وظل يبحث ترى من يكون هذا الذى قتله ، فعرف أنه ذلك المريض الذى رفض أن يمنحه الإجازة وأن عقله الباطن يؤنبه على ذلك .

ومن طرائف الأحلام ، ما يراه النائم أنه يطير فى السماء ، يذهب فرويد إلى أن هذا الحلم عود إلى عهد الطفولة . حين كان الطفل يهدد ويرفعه أهله بين أيديهم فيحس بلذة وراحة . ويختلف أدلر معه فيرى أن هذا الرمز دليل على الرغبة فى الصعود من أسفل إلى أعلى ، أو الرغبة فى التغلب على العقبات وبلوغ الأمان من أيسر طريق .

لا شك فى أن الأثر النفسانى الذى يحدثه الحلم عظيم ، فالكابوس وهو الحلم المرعب يجعل صاحبه يستيقظ وهو فى هم شديد . ورؤية البساتين والحدائق والمناظر الجميلة تعود على صاحب الحلم بالبهجة بعد اليقظة .

فلتكن أحلامنا سعيدة تحقق الله لنا الأحلام .

الرؤيا الصادقة

أرسل إلينا الدكتور محمود عبد الله ، عقب المقال الذى نشرناه عن النفس والروح كتاباً يطلب فيه تفسيراً علمياً لحلم جاء فيه أنه فى ليلة من ليالى أغسطس ١٩١٤ رأى فيما يرى النائم أنه وصله تلغراف من الدكتور فيشر ، وهو طبيب إخصائى فى الرمد ، نصها : احضر لمقابلتنا باكر الساعة ١١ صباحاً ، فلما استيقظ من النوم لم يدهش لهذا الحلم ولم ينزعج للرؤيا أو يفكر فيها ، لأنه لم يفكر فى الاشتغال بطب العيون ، وبعد أن تناول الإفطار ، وذهب إلى عيادته ، إذا به يتلقى فى الساعة العاشرة تلغرافاً نصه كنص التلغراف الذى رآه فى المنام ، ماعدا الإمضاء ، إذ كانت الدكتور ماكلان .

ولانزعاع فى أن مطابقة الواقع الذى حدث فى المستقبل لما رآه صاحب الرؤيا فى الليل أمر غريب يحتاج إلى تعليل .

والتفسير العلى هو أحد أمرين إما انتقال الفكر ، المعروف باسم التلباتى ، أو انشغال البال دون شعور . فمن جهة الفرض الأول ، أى انتقال الفكر ، يكون الدكتور ماكلان وهو رئيس قسم الرمد فى ذلك الوقت قد فكر فى إرسال التلغراف إلى الدكتور محمود عبد الله ، وحدد الصيغة والساعة ، وتلقى ذهنه هذا كله فرآه حلماً . أو يكون الذى فكر فى ذلك أحد الموظفين أو الكتبة .

وانتقال الفكر حقيقة مسلم بها علمياً ، ولو أن تعليلها يختلف عليه ، وقد تحدث فى حال البقطة ، كما تحدث فى النوم .

١ والفرض الثانى أن الرؤيا نتيجة التفكير اللاشعورى فى الاشتغال بهذا الفرع من فروع الطب . ونحن نرجح هذا الفرض ، وبخاصة لأن صاحب الرؤيا يقول أنه اعتذر عن قبول هذا العمل بقصر نظره ، ولم يخطر بباله ، ولم يفكر فى يوم من الأيام فى الالتحاق بقسم الرمد . نقول إن العقل الباطن يفكر على خلاف العقل الظاهر ، وإن قصر نظره هو السبب فى انشغال البال بقسم الرمد ، والتفكير فى العمل بهذا الفرع تفكيراً لاشعورياً . ويبقى أمر انتقال التلغراف والساعة وقد يكون

ذلك من قبيل المصادفة ، أو لعل هذه هي الطريقة التي كانت متبعة في استدعاء الأطباء للعمل في ذلك الحين ، فلم يكن مستغرباً أن يحلم بنفس الطريقة .
وقد حفظ التاريخ عدة أمثلة للرؤيا الصادقة ، وقالوا إن ذلك دليل على التنبؤ بالغيب والاطلاع على المستقبل ، وكتب قدماء المصريين والإغريق والرومان في ذلك الشيء الكثير .

وما حفظه التاريخ ما يروى عن كالبورنيا زوجة قيصر الرابعة فقد حلت ليلة مصرعه أن سقف البيت قد تهدم على سكانه ، وانها تلقت زوجها وقد طعنه الأعداء بين يديها فمات في أحضانها ، وأنها رأت تمثال قيصر كأنه نافورة بها مائة صنبور تتدفق منها الدماء ، فجرى إليها كثير من أهل روما يغسلون فيها أيديهم . .
وقد صور شكسبير هذه القصة شعراً في روايته يوليوس قيصر . ويُروى أنها حاولت أن تمنع زوجها من الذهاب إلى مجلس الشيوخ في صباح ذلك اليوم المشؤم ، ولكنه أصر فلقي القدر المحتوم .

وشبه بهذه القصة ما روى عن حياة الرئيس لنكولن رئيس جمهورية الولايات المتحدة فقد حكى « لان » كاتب سيرة حياته ، أن الرئيس رأى في المنام قبل مصرعه بأسابيع الرؤيا الآتية :

كنت أشعر بسكون رهيب يشبه سكون الموت . . . ثم سمعت شهيقاً وكان عدداً من الناس ييكون . وخيل إلى أني نهضت من فراشي ونزلت سلم الدار . وكان يقطع ذلك السكون صوت البكاء والعيول غير أني لم أر أحداً . وذهبت من حجرة إلى حجرة ، فلم أقابل إنساناً ، ولكنني كنت أسمع هذه الأصوات الحزينة فاضطربت وفزع . . . ما معنى هذا كله ؟ وأخيراً بلغت الغرفة الشرقية ، ودخلتها حيث رأيت مفاجأة رهيبة . كان أمامي صندوق موتى وفوقه جثة قد لفت بالآردية الجنائزية ، واصطف حولها جند في وقفة الحرس . وازدحم الناس بعضهم يحدق في حزن في الجثة التي كان وجهها مستوراً ، وبعضهم الآخر ييكون بكاء حاراً . فقلت « من الذي مات في البيت الأبيض ؟ » . إنه الرئيس ، لقد طعنه قاتل أثيم . . . واستيقظ الرئيس لنكولن مذعوراً ، ولم ينم بقية ليلته ، وظل مضطرباً من أجل هذه الرؤيا إلى أن قتل فعلاً .

وروى هيرودوت في تاريخه عن كروسس آخر ملوك ليديا في القرن السادس قبل الميلاد ، أنه أراد أن يعرف رأى الآلهة في الحرب التي ينوى إعلانها على سيروس ، ولكنه قبل أن يسمع رأى العرافين في زمانه ، أراد اختبارهم ، فأرسل إلى ستة عرافين ، وعيّن لهم يوماً معيناً وساعة معينة ، طالباً منهم التنبؤ بما يفعل في تلك الساعة . ثم نوى أن يعمل شيئاً غريباً غير مألوف لا يخطر بالبال . وأخفق العرافون ماعداً عراف داني الذي قال إن الملك قد أخذ سلحفاة وخروفاً وقطعهما قطعاً صغيرة ووضعهما في إناء من النحاس وأشعل تحته النار . وكان ذلك صحيحاً . فإن صحت هذه الرؤيا التاريخية ، فإنها دليل على انتقال الفكر لأن العراف انتظر حتى جاءت تلك الساعة .

أما حلم زوجة قيصر فلمعه من قبيل انشغال البال ، والخوف على زوجها ، ثم حققت الحوادث وهمها . وكذلك حلم الرئيس لنكولن ، فالعظماء مهددون ، وهم لهذا السبب يتخذون الحرس الشداد .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى فرض آخر ، فزعموا أن الإنسان يستطيع الاطلاع على المستقبل . وأن يستشف حجب الغيب ، وأن يرى الأشياء عن بعد ، وذلك بحاسة سموها الحاسة السادسة ، بها يدرك الغيب ، ويعرف الأشياء البعيدة كأنه يراها بالبصر ، غير أن العلم لم يعترف بوجود مثل هذه الحاسة ، لأنه لا يعترف إلا بالأشياء الواقعة التي يمكن مشاهدتها ، والتي يمكن إحداثها ، والتي يمكن قياسها ، وهذه الحاسة لا تخضع لضابط ، بل ذهب القائلون بها إلى أن الوسطاء الذين يوهجون هذه الموهبة ، لا يمكن تعليمهم أو تنمية الموهبة في أنفسهم ، وأنها تظهر فترة من الزمن ثم تختفي . ولذلك كان مذهب فريد في تفسير الأحلام ، وخلاصته أن الحلم تحقيق رغبة كامنة أو خوف باطن لا شعوري ، هو أدنى إلى العلم .

فالحلم أمل يتحقق أو خوف يتجسم .

وقد يتحقق الأمل أو يتجسم الخوف صريحاً لا رمزاً كما هي أغلب الحالات ، وعندئذ نقول إن الرؤيا صادقة تعبر عن المستقبل .

جواهر

الكلمة

القراءة

الأدب المكشوف

الذوق والمجتمع

الكلمة

هل لاحظت رضيعاً أخذ في النطق والكلام ؟ ألم تر أن أول لفظة ينطق بها هي بابا أو ماما لأنهما أسهل الأصوات مخرجا ، وهما شائعتان في أغلب اللغات لهذه العلة . وحاجة الطفل إلى أمه وأبيه شديدة ، لأنه ضعيف لا يعتمد على نفسه ، ويحتاج إلى الأمن من الخوف والجوع والبرد ، فإذا نطق بهذا اللفظ وارتبط بسمعه طرب له وعجب لصدوره منه ورأى أنه كأهله يسمع وينطق . ويزداد عجبه عند ما يشهد أثر الكلمة ووقعها في أمه عندما يناديها قائلا ماما ، فإذا بها تجيب برد الكلمة بكلمة واللفظة بلفظة أخرى ، بل تتجه نحوه وتتحرك إليه ، وتقبل عليه ، وتلمس حاجته وتقضيها له ، بأن تسقيه أو تناوله لحيته ، أو تساعد على النهوض وما أشبه ذلك من حاجات الأطفال .

وهنا وجه العجب ، كيف يحرك صوت مؤلف من حرفين إنسانا طويلا عريضا فينقله من مكان إلى مكان .

هذه هي قصة الكلمة في نشأتها عند المرم منذ يشب عن الرضاعة ويخرج عن الطرق . إنها إشارة إلى الأشياء المحيطة بالإنسان ، هذا أب وهذه أم ، وهذا باب أو شباك أو كرسي أو مائدة أو عصفور وما أشبه ذلك مما يراه الصغير ويقع تحت الحواس ، فالكلمة رمز يعبر عن الشيء ، وقد اجتمع اصطلاح القوم عليه ، وتعارفوا فيما بينهم على أن اللبب المؤلف من اللام والباء والنون هو هذا السائل الأبيض المعروف .

فالأصل في الكلمة صدورها من فرد إلى فرد ، وخطاب من شخص إلى شخص ، ولذلك كانت الكلمة ظاهرة اجتماعية لا تفهم إلا من هذا الاعتبار ، ولو أنها تعبر عما يحول في الذهن ويدور داخل النفس .

ولولا حياة الإنسان في جماعة وحاجته إلى غيره من الناس وصلة كل واحد

بالآخر ما رأى وجها لضرورة الكلام . وهل يكلم نفسه إلا مجنون أو مخبول ؟
وأول سحر للكلمة هو ما رأيناه من أنها تؤثر في الناس فتدفعهم إلى الحركة والعمل والسلوك . فلما يتبين الطفل أن نداءه لأبيه ينقله إليه ، يتطلع إلى تكرار هذا النداء ليتحقق من أثر الكلمة وصدق فعلها ، فينادى أباه مرة ثانية وثالثة ورابعة . ويسر لذلك أشد السرور لما يراه من النتيجة الباهرة التي يصل إليها ، ولكن الأب يسأم هذا الطلب الذي يخلو من الجد ، ويأنف أن يصبح العوبة في يد ابنه ، فلا يجيب له بعد ذلك طلباً .

تري هل فقدت الكلمة سحرها وانعدم مفعولها ؟

وهناك كلمات تغني عن آلاف ، وتحرك الجماعات ، فهذه فرنسا قبل ثورتها شاعت فيها الأفكار الجديدة وألف الفلاسفة السكتب والرسائل والمطولات يحللون الطبيعة البشرية ويصورون نظمها ويتصورون السبيل إلى صلاح أمرها ، حتى إذا شبت الثورة الفرنسية لخصت السكتب المطولات في ثلاث كلمات : الحرية والإخاء والمساواة .

تري ما الحرية ؟ هذه كلمة واحدة من بين عشرات مثلها كالديموقراطية والعدل والخير والشر مما يجرى على كل لسان ، ومع ذلك يحار المرء في معرفة المراد ، وتحديد المدلول ، وبيان الواقع وإصابة الحق .

المهم أن هذه الكلمات مع غموضها ذات تأثير عظيم .

والكلمة حين تخرج من فم صاحبها تعبر عن شعوره وتفصح عن إرادته ، وكأنها عهد قطعه على نفسه . وهذا هو معنى قولهم « أعطيك كلمتي » كأنها تقع في مقابل الإرادة مع الشرف في التنفيذ .

ولكن للكلمة طائفة تذهب في الهواء وتصبح هباء ، ويستطيع صاحبها أن ينكرها والتحلل منها . ولذلك استعانوا بالشهود يؤكدون السماع . واستوثقوا بطلب الحلف بالله العظيم ، حين رأوا أن الشهود يشترون بالمال ، وعبت الناس

بأيمانهم ، كما جاء في أمثال العامة ، قالوا للحرامي احلف ، قال جالك الفرج ، . عندئذ قيدوا الكلمة بالكتابة ، وسمى ذلك عقداً بين الطرفين . ثم زادوا العقد وثيقة بإمضاء الشهود حتى لا يحتمل الإنكار . فهل حفظ الناس كلمتهم بعد هذه الضمانات كلها .

من أمثال اللاتين في العصر الوسيط أن الثور يُربط بقرنيه والإنسان بلسانه ، لأن الممول كان على الشرف في حفظ الكلمة . ويبدو أن الإنسانية تسير إلى طريق منحدر يبعد كل البعد عن الفضيلة والشرف وهذه الخلال الكريمة التي ترفع من شأن الإنسان . وليست الأخلاق شيئاً آخر إلا التمسك بالكلمة ، وحفظ العهد ، وتنفيذ العقد ، وقد شاع في الناس مع الأسف الشديد سوء الخلق بأن أخذوا يتحللون من الكلمة وينقضون الميثاق ، وهذه صفة تنتشر في الدولة مع عصور انحطاط ، بل هي آفة التأخر ونذير الانحلال . وما رأينا أمة نهضت وتبوءت مكانها في التاريخ إلا وكانت الأخلاق الفاضلة الدعامة التي قامت عليها ، وأول هذه الدعائم صدق الوعد ، وحفظ العهد ، والتمسك بالعقد .

والغريب في أمة الإنجليز أنهم ينكثون بكلمتهم في السياسة ، ولكنهم يتمسكون بها فيما بينهم . وهذا سر نجاح الشعب وبقائه .

فاذا تأملت في الصلة بين الكلمة والواقع رأيت عجبا .

رأيت الكلمة ثابتة ، والواقع متغيراً . هذا تاجر قد اشترى بضاعته بألف من الجنيهات ، وأعطى كلمته ، والكلمة بين طوائف التجار شرف يرتبطون به . فلما تجهزت البضاعة وأوشك على الاستلام نزات الأسعار نزولاً كبيراً فأصبحت لا تساوي أكثر من خمسمائة جنيه ؛ فهل يتمسك التاجر بكلمته ويدفع الثمن الذي قال عنه ، أم يتحلل من كلمته فلا يدفع إلا ثمن البضاعة الحاضرة ؟ وبيان هذا الاختلاف هو الفرق بين الكلمة وبين الواقع ، بين الكلمة الثابتة وبين الواقع المتغير . وأنت حين تطلب من الناس أن يتمسكوا بكلمتهم مع تغير الواقع ، لأن

الحياة دائمة التغير لا تثبت على حال ، إنما تطلب منهم الوقوف عن مسيرة الحياة والوقوف جمود ، والجمود تخلف عن الركب وتأخر عن التقدم ، بل انظر إلى حالة هذا التاجر ، ألسنت ترى أن تمسكه بكلمته هو الإفلاس .

هذه هي المشكلة فكيف السبيل إلى حلها ؟

قل لك أنك مع الاحتياط لجميع الظروف ، فلا تسرف في الوعد ، ولا تقطع على نفسك عهداً لا تستطيع تنفيذه ، فإذا نطقت بالكلمة فعليك أن تحفظها ، ولذلك كان الصمت أفضل من الثثرة ، وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، كما قيل في الأمثال .

القراءة

ذكر المؤرخون عن أبي الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة أنه عُني بالعلم من صغره إلى كبره ، حتى حكى عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه ، وليلة بنائه على أهله . وأنه سود فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة .

وحكى الشيخ الرئيس ابن سينا يروى سيرة حياته قال : وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى مني العجب ، فلما بلغ سن الشباب قال : وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي ، وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فأنجلي النوم ، أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح الشراب ريثما تعود قوتي ، ثم أرجع إلى القراءة ، ومتى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوها في المنام .

هذه أمثلة نسوقها إلى شباب اليوم وعماد المستقبل ليعلموا أن السر في نهضة الشرق وحضارته التي ازدهرت في ذلك العهد إنما قامت على العلم ومحبه ، فلا حضارة بغير ثقافة ، ولا ثقافة بدون تعلم ، وطريق العلم شاقة ، وسيلها الاطلاع والتوافر على القراءة .

وكان القدماء يسعون إلى الكتاب على ما في ذلك من مشقة النسخ وقلة الضوء وغلاء المؤلفات وضمن أصحابها بها، حتى إذا سعى الكتاب إلى الناس مطبوعاً أنيقاً رخيصاً واضحاً في ضوء الكهرباء انصرفوا عن قراءته، وزهدوا في الاطلاع عليه .

وهذه آفة خطيرة بالغة الأثر في حضارة هذه الأمة . وما بالك والشعب المصري يزيد عدد سكانه على عشرين مليوناً ولا تتعدى أعظم الصحف انتشاراً مائة ألف ، ولا يطبع كتاب أكثر من ألفين نسخة لا تنفذ إلا بعد بضعة سنين . وفي أوروبا يطبع من الصحيفة الملايين ، ومن الكتاب الواحد الآلاف عدة طبعات في العام الواحد . فكيف نزع بعد ذلك أننا أخذنا من الحضارة بالنصيب الوافر ، ومنطق الأرقام يدل على الجهل الشديد .

ولكل آفة علة ، ولكل علة دواء .

غير أن علة انصراف الجيل الحديث عن القراءة ليست واحدة . فهذه مشكلة ثقافية واجتماعية ونفسانية ، بل واقتصادية أيضاً .

وليس الشباب هم المسؤولون عن ذلك لأنهم لم يمشأوا النشأة الصحيحة ، ولم يوجهوا التوجيه السليم . والمسئول هم أهلهم أولاً ، والمدرسة التي قامت بتعليمه ثانياً .

ومن أغرب الأمور في مصر أننا نسكل إلى المدرسة كل شيء ، نطالبها بالتعليم والتهديب والتربية الخلقية نفسها ، مع أن الأصل في ذلك البيت ، والمدرسة تختص بشيء آخر هو فتح باب العلوم أمام الطالب . وأنا أذكر تجربتي الشخصية التي أكسبتني عادة القراءة ، لأن القراءة عادة إذا ألفها المرء تمكنت منه ، وهي مثل كل عادة يلبغى بها منذ الصغر ومولاتها بالتمكرار . ففي سن العاشرة أو نحو ذلك كنت أميل إلى قراءة القصص ، وكانت هذه الرغبة تدفعني إلى شراء الروايات وقراءتها في الفصل المدرسي حيث أضع الرواية على ركبتي في أثناء الدرس ، حتى لا يضبطني المدرس متلبساً بقراءة رواية ومشتغلاً بالانصراف عن الدرس . فلما قُربت الرغبة في قراءة القصص والروايات ، اتجهت نحو قراءة أشياء أخرى أكثر

جدًا ، ووقعت على هذه الكتب مما كان موجوداً في البيت وكان أبي مع أنه مهندس يقتنى كثيراً من الكتب الديمة وبعض كتب الأدب مثل الأغاني .
وقرأتُ وأنا في الثانية عشرة الأدب الكبير لابن المقفع فكان له أعظم الأثر في حياتي الأدبية ، وفي تكوين ذوقي . وقرأت كذلك عما وجدته أمامي نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب .

تخلص من ذلك إلى أن الطفل يميل بطبعه إلى الاطلاع . فعلمنا أن نفتح أمامه أبواب المعرفة . بأن نجهز له ما أسميه « مكتبة البيت » نضع فيها قصصاً تلائم ميوله ورغباته وتناسب عمره ، وقد أصبحت هذه الكتب متوفرة في السوق الآن . ثم نختار من الكتب ما يبحث في التاريخ والرحلات والدين والأدب مما يكمل المكتبة ، ويقرؤها رب الدار وزوجته ، ويقرؤها أبناءها كلما دخلوا في طور الشباب .
والعلم سر رقي الأمم . أما رجال الجيل الحاضر فإن كانوا من أهل الطبقة الراقية اهتموا بالسباق واقتناء السيارات وهذه المظاهر البراقة التي تدل على الفراغ والاشتغال باللهو والابتعاد عن مواطن الجد . وهؤلاء هم الصفوة الممتازة القادرون بما وهبهم الله من ثروة أن يفتنوا المكتبات كما كانوا يفعلون في العهود الغابرة الزاهرة ، أو يقوموا بطبع الكتب على نفقتهم تشجيعاً للثقافة ونشراً للعلم وتيسيراً له للفقراء من أهل أمتهم .

وإن كان المصري من أهل الطبقة الوسطى أو من الشعب ، أنفق معظم وقته في « القهوة » يلعب الورق والنرد أو يجلس كما يجلس « تنابلة السلطان » على قارعة الطريق ينظر إلى العاديات والرائحات ، فلا يجد بعد ذلك وقتاً ينفعه في القراءة والتثقيف .
فإذا رحلنا إلى المعلمين في المدارس نلتهم عندنا نقاد بعض الشيء من هذه الافة ، بأن يبدوا في نفوس الذئبي حب الاطلاع ولذة القراءة فينشأوا على هذه العادة ويألفوها مع الزمن ، رأينا جمهرة المعلمين كسائر المصريين لا يكاد أحدهم يفرغ من مدرسته حتى يخرج محطماً الأعصاب ثائر النفس يقطع الوقت كما يقطعه أغلب الناس في

المقهى . ولا تزيد قراءة أحدهم على النظر فى الصحف والمجلات . فكيف تطمع من أمثال هؤلاء المعلمين أن يعلموا الطلاب شيئا لم يألوه هم ، وقد قيل فاقد الشيء لا يعطيه . والمعلم معذور لأنه مطالب بنتيجة الطلبة فى آخر العام حين يتقدمون إلى الامتحان ، فهو يعدهم لاجتياز الامتحان من أيسر سبيل ، فيلخص لهم المقررات ، ويمليها عليهم فى مذكرات مختصرات ، ويحفظها الطلبة ثم يلسونها بعد الامتحان ، وقد انتشرت هذه الطريقة مع الأسف الشديد فى الجامعة مع أن الأصل فى التعليم الجامعى اعتماد الطالب على المراجع المختلفة .

وبعد ، فإن القراءة عادة حسنة تغنى عن كثير من العادات السيئة ، وهى غذاء العقل ، ترفع المرء من عالم المادة إلى عالم المعانى والأفكار ، وتجلب له متعة أمتع من المباحج المادية . ولن تندم إذا اشتريت كل شهر كتابا واحدا . لأنك سوف تجد فى آخر العام اثنى عشر كتابا ، وبعد عشرة أعوام مائة وعشرين ، فتجد فى آخر العمر مكتبة تأنس إليها ، وتركن لها ، وتجد فى صحبة ما فيها من كتب ذكريات الماضى وتجربة الزمان .

الأدب المكشوف

احتدم الجدل فى مصر أخيرا حول الأدب المكشوف وما يتصل به كالصور العارية وما إلى ذلك أيليق أن ينشر على الجمهور أولا يلىق ؟ أيتفق مع مبادئ الفضيلة أولا يتفق ؟ أيلحق للدولة أن تتدخل فى الحد من هذا اللون فى الأدب أولا يلحق لها ذلك ؟ لأن تدخلها يحد من حرية الرأى والفكر واللاهو ، وليست أنواع الصراع والحروب بين الدول والشعوب إلا مطالبة بالحرية ودفاعا عنها وذودا عن حياضها . وللدين كلمة فى هذا الموضوع أتركها لرجال الدين ، فهم أولى الناس بعرضها وهم لا ينفكون يذكرون الناس فى المساجد والمعابد بما أمر به الله ونهى عنه . ولكن أحب أن أذكر هنا كلمة علم النفس ، أو بعض آراء زعمائه .

فالأصل في الإنسان العرى وعدم الحياء من الأمور الجنسية ، وهي المقصودة بما نسميه الأدب المكشوف ، إذ هكذا يولد من بطن أمه ، ولو شاء الله خلقه كاسيا يستر عورته ، كما هي الحال في سائر أصناف الحيوان ، لا تستر أعضاؤها التناسلية ولا تتخفى في اتصالاتها .

ولكن الإنسان إنسان وليس حيوانا .

وإذا سلطنا بمذهب التطور أو النشوء والارتقاء الذي يحدثنا أن الإنسان كان حيوانا ثم ارتقى درجة عن طور الحيوانية ، تعددت آراء العلماء في الأصل الأول الذي انبثقت بعده حالة الإنسانية .

يذهب علماء الاجتماع إلى كثير من الفروض بعد النظر في المظاهر الخارجية لما يفعله الإنسان البدائي ، أى في ابتداء إنسانيته . وهي مظاهر كثيرة متنوعة منها استعمال النار ، واستخدام الآلات ، والاستفادة من الديدن ، والتزين نغنى اتخاذ أشياء طبيعية أو صناعية كالزهور أو القلائد للزينة ، ولبس الملابس إما للدفء أو لستر العورة .

أى هذه المظاهر تعد الخطوة الأولى في الانسانية ؟

إنى أزعج أو أفترض أن بداية الخروج عن الحيوانية والانتقال إلى ما يسمى بالإنسانية هو ستر العورة ، ولم يكن ذلك بكساء منسوج ، ولكنه بأوراق الشجر وما يشبه ذلك من النبات وليس من الغريب أن تحدثنا الأساطير الدينية بأن آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة إلى الأرض ، ظهرت سوأتهما فاحتاجا إلى سترها بأوراق الشجر . ولقد شاهد الذين سافروا إلى باريس وحضروا ملهى الفولى برجير ، وغيره كيف تظهر النساء عاريات تمام العرى ، ولكنهن يسترن العورة بورقة شجرة خضراء . وهذا رمز لحواء التى طردت من الجنة وكانت تعيش على وجه الأرض في هذا الزى .

فما معنى ظهرت سوأتهما ؟

ليس معنى ذلك أن آدم كان خلوا من الأعضاء التناسلية ، وكذلك حواء ، فهما يمثلان الذكر والأنثى ، يمثلان الجسدين المختلفين اللذين يتم باتصالهما إنجاب خلف صالح هم بنو آدم ، هم أنت وأنا وسائر الناس ممن يعمرّون الأرض .

فقولنا ظهور العورة لا يدل على أنها لم تكن موجودة ثم وجدت ، بل على أنها كانت موجودة ثم تلبس لها آدم ، وشعر بها الإنسان ، ثم رأى أن يسترها .

والشعور هو أول مراتب الفكر ، فلا عقل بدون شعور . وليس الحيوان عاقلًا لأنه لا يشعر ، بمعنى لا يتأمل ما يصدر منه ، وأغلب أعمال الإنسان لا شعورية تصدر عنه بغير وعي ، فيكون كالآلة المتحركة لا كالإنسان العاقل المفكر .

وقد علل بعض العلماء ظهور الشعور في الإنسان من النظر في مياه النهر أو البحيرة ، فإنها إذا كانت راتقة صافية كانت كالمرآة التي تنعكس على صفحتها صورته . لقد رأى الإنسان نفسه وأدرك أنه هو وليس شيئاً آخر وكاننا مختلفاً عنه ، فتأمل نفسه وشعر بوجود ذاته .

فلما راقب الإنسان نفسه في طعامه وشرابه وصيده وحركته ولحوه وأعباءه وطلبه الأنثى ، رأى أن أخطر هذه الأعمال وأعظمها أثراً في بقائه هي حياة الأنثى ، والغيرة عليها والدفاع عنها من تطلع الراغبين فيها حتى يستأثر بها . وشاءت المرأة من جهة أخرى أن تثير رغبة الرجل بما تبديه من حياء ودلال فأخفت عورتها ليزيد طلب الرجل لها .

ستر العورة هو فترة الانتقال بين الحيوانية المبتدلة والإنسانية الممهدة .

وستر العورة دليل على نشأة الشعور الإنساني .

وستر العورة بعد الشعور هو أول مرحلة من مراحل التفكير البشري .

ثم رتب فرويد عالم التحليل النفسي مذهبه في الشعور واللاشعور . فهناك أعمال تشعر بها وتبرز في مجال الوعي وتتضح كأنها في ضوء ساطع كما تقرأ هذا هذا الكلام الآن . وهناك أشياء ، كبتها ، كما يقولون في الاصطلاح النفسي

خانتقلت إلى ميدان اللاشعور ، وأهمها المسائل الجنسية التي تعلمت الإنسانية خلال
آلاف من السنين أن نخفيها ، ولا نتحدث عنها بصراحة ، ولا نفعلها في وضع
النهار كما نأكل ونشرب .

وقد استفادت الإنسانية من كبت الأمور الجنسية فتحوّلت إلى الفنون
والآداب والعلوم والمكتشفات ، على سبيل التعويض عن ذلك الحرمان .

فالذين يطالبون بالحربة التامة في العلاقات الجنسية يخرجون الإنسان عن
طبيعته الإنسانية ويردونه إلى مرتبة الحيوان ، والذين ينادون بمذهب الأدب
المكشوف إنما يطالبون قلة الأدب بل يطالبون انعدام الأدب . ولست أدرى
ماذا أقول في هذا التناقض الشنيع إذ لا يتفق أدب وانكشاف ، لأن الأدب في
في طبيعته سمو ، سواء أكان التسامي خاصا بالأمور الجنسية أم كان التعالي عن
غيرها من مظاهر الحياة . ولا يكون الأدب أدبا إلا إذا كان جميلا ، ومن جمال
الصورة أن تستر الشيء الفبيح ، ولذلك نقضى الحاجة في ستر لأن حاجتنا كرية فنخفيها
وقالوا : من الأدب ألا تجهر بصوتك في المجتمع ، لأن ظهوره عيب لا يتفق
مع أصول اللياقة والنهذية ، وعبروا بالكتابة والاستعارة والإشارة البعيدة عن
المقصود إمعانا في الخفاء وطلباً للأدب .

روى القدماء أن أبا الملأ المعري حضر مجلس الشريف الرضى ولم يكن يحب
المتشبي فأخذ يقدح فيه ، ثم سأل المعري عن رأيه فقال : لو لم يكن له إلا القصيدة
التي مطلعها : لك يا منازل ، لكفى . فغضب الشريف الرضى وقال : اسحبوا هذا
الاعمى من مجلسي . ولم يفهم الحاضرون المقصود ، حتى تبين لهم أن غرضه من
القصيدة هذا البيت :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى عاقل

فانظر إلى الأدب وتأمل جوهره تجد أنه سمو عن الابتذال ، وترفع عن

الإسفاف ، فلا غرابة بعد ذلك أن يتنافى الأدب والانكشاف .
ولكن الأدب شاق لأنه يتطلب معارضة الطبيعة الحيوانية المركبة في الإنسان ،
ولك أن تختار بين السهولة الحيوانية ومشقة الإنسانية .
وقد رأينا من استقراء التاريخ أن الدول التي تمسكت بالآداب ارتقت مدارج
الحضارة ، حتى إذا كشفت أديها سارت في طريق التقهقر والانحطاط .
فإذا شئت مصر أن تسلك سبيل الرقي فعليها بطريق الأدب الشاق ، وإذا
أرادت أن تظل متخلفة أو أن يزيد تخلفها فعليها بالآداب المكشوف .

الذوق والمجتمع

الذوق إحساس بالجميل أو هو الاستحسان والاستهجان ، فلا غرابة أن يكون
الذوق شخصياً مختلفاً باختلاف الأفراد من حيث الطبائع الموروثة والأمزجة
المتباينة ، والثقافات المختلفة والبيئات المتعددة التي ينشأ فيها كل فرد . والطبع
والمزاج والثقافة كل أولئك صدى المجتمع الذي تعيش فيه . فإن قال قائل : إن
الطبع شخصي والمزاج فردي قلنا : ولكنه موروث عن الآباء ، وقد يرث أحدا
خصلة عن أحد أجداده وأخرى عن جده الأبعد ، فالمرجع في نهاية الأمر إلى
الآباء والأجداد ، والأمرة كما قال أرسطو هي الخلية الأولى في بنيان المجتمع .
فالذوق جملة أشياء اتلفت ثم صهرت في بوتقه الفرد ، ولسكن مصدرها المجتمع
وقد يقال الذوق على هذه الجملة المؤتلفة ، كما يقال على ما تذوق به ، وهو جملة
مؤتلفة أيضاً .

خذ مثلاً هذا الشخص في لباسه ، يُعنى باختيار ألوان رداءه ، ورباط عنقه ،
ولا يلبي أن يضع منديلاً يبرز منه طرفاً يسيراً من جيب رداءه ، ويضيف إلى ذلك
كله وردة يضعها في عروة الرداء ويميل إلى فاحية ، ويجعل زره في زاوية خاصة ،

ويتضمن برائحة عطرية تفوح كلها أخرج منديله .

هذه الجملة المؤتلفة التي ذكرناها هي ذوق ذلك الشخص ، إنه أشبه باللوحة الفنية التي يرسمها المصور ، والفرق بين الشخص واللوحة ، أن الشخص حتى يتمدد بتغير مع تغير الزمن ، واللوحة ثابتة تدل على فترة واحدة من زمان هذا الشخص .

وفرق آخر هو أن إثارة صاحبنا لهذه الأمور كلها هي ذوقه في نظر نفسه ، أما لوحة الفنان فهي مارآه في هذا الشخص ، أي هذا الشخص في نظر الفنان ، فهي تدل على ذوق الفنان . ولو أننا طابنا من عدة فنانين أن يرسموا صورة لشخص واحد ، لاختلفت أذواقهم ، وتباينت لوحاتهم ، مع أن الشخص واحد . ويزيد هذا الاختلاف إذا كان الفنانون من بلاد مختلفة وثقافات متباعدة ، كأن يكون أحدهم صليبا والآخر إيطاليا . ولذلك اختلف الفن الإسلامي ، مع أن الإسلام دين واحد ، باختلاف الأمم التي انشرفها ، فهو في الصين غيره في إيران ، وهو في تركيا خلاف ما نجده في مصر . ويرجع ذلك إلى أن الذوق ينبع عن المجتمع ويتكون المجتمع من تقاليد وعادات وآداب وثقافات تنتقل من جيل إلى جيل وتثبت على مر الزمان .

هذه الجملة المؤتلفة كما تبدو في المظهر المحسوس بما نراه من زئ الأفراد ، تبدو في كل عمل وفي كل سلوك وفي كل تفكير . لأن كل عمل يتألف من أجزاء كثيرة ولكنه ينتهي إلى جملة واحدة مؤتلفة . هذا مهندس يبنى بيتا ، وهذا طبيب يشيد مستشفى ، وهذا قائد يرأس جيشا ، وهذا زعيم يسوس أمة ، كل واحد من هؤلاء عندما يصدر أمرا يدخل في نطاق عمله إنما يصدره عن جملة ذوقه فينم عن شخصيته كذلك المفكر حين يكتب أو الشاعر حين ينظم قصيدة ، تدل الكتابة على ذوق الكاتب ، وتفصح القصيدة عن ذوق الشاعر . والكتاب جملة ائتلفت من عناصر كثيرة هي الطبع والمزاج والثقافة والبيئة ، نغني هذه التيارات الاجتماعية التي تسربت إلى نفسه وكونت ذوقه ، فكان الذوق عنوانا على هذه الخلاصة .

وأظن أنك قد تعترض اعتراضاً له ولا ريب وجاهته ، هو أن الجملة المؤتلفة قد تكون غير مؤتلفة ، بل متنافرة ، كالشيخ الذي يصبغ شعره ليتصاير ، أو المرأة العجوز تضع الأصباغ لتبدو كالفتيات الصغيرات .

وهذا حق ، وفي هذا الذوق وأمثاله تنافر ولذلك يسمى بالذوق القبيح ، ويسمى المؤتلف بالذوق الحسن .

ولكن ما ميزان الحسن والقبيح ؟

هذه هي المشكلة الكبرى ، وهي مشكلة معقدة ، لأن الذوق كما رأينا ليس بسيطاً بل معقداً ، أو هو الجملة التي اجتمعت من أطراف اجتماعية وشخصية كثيرة .

بل الذوق في نهاية الأمر إحساس ، والإحساس شخصي ، وإلا كيف تفسر استحسان فرد من الناس فاكهة معينة كالتمرايح وانصرافه عن فاكهة أخرى كالموز وكلاهما حسن ، إنه الذوق الشخصي .

كذلك استحسان الرجل جمال المرأة ، هذا يحب ذات اللون الأبيض وهذا يحب ذات اللون الأسمر ، وهذا يميل إلى النعيفة وذلك إلى الممتلئة .

وقد حاول علماء التحليل النفساني أن يردوا الذوق إلى ما تأثر به كل منافي عهد الطفولة ، والتمسوا علة الأذواق في الدشأة الأولى ، ومع ذلك فاعلة استحسان الطفل قبل أن يتأثر بأهله وبيئته ، وقبل أن تثبت في نفسه هذه التأثيرات .

ويلوح لنا أن مصدر الذوق هو المجتمع .

الأصل فيه هذا الإحساس الشخصي ، ثم ننظر فنجد إجماعاً من الناس على استحسان شيء ، فنقول هذا ذوق عام ، أو ذوق المجتمع ، وهذا هو مذهب تولستوى في الفن ، يرجع به إلى إحساس الفرد ، ثم يحكم بالأغلبية ، كما هي الحال في الانتخابات .

فذوق الفرد يستمد من الذوق العام .

والذوق العام مؤلف من مجموع أذواق الأفراد ، كالرأي العام المؤلف من جملة

آراء الأفراد . غير أن الرأي العام إذا حللته وجدت أنه ينشأ عن الصفوة الممتازة وعن أهل البصر ، وقادة الفكر ، وسائر الناس لهم متبعون مقلدون . كذلك الذوق العام يقوم على عدة أفراد هم طليعة الذوق ثم يحاكيهم أغلبية الناس . كما هو الحال في « الموضة » مثلا .

وعامة ذلك ، أن الحكم في رأى أو الميل إلى شيء ، يحتاج إلى ترجيع وإيثار ، وليس ذلك بالأمر اليسير ، إذ غالبا ما نتردد أو نتذبذب فلا يعجبنا شيء ، حتى إذا رأينا صاحب حكم اتجه إلى ناحية من النواحي ، خرجنا من التردد وسارناه في حكمه . وكثيرا ما نتريث في تذوق الأشياء بل نتردد ، ثم نطلع من هذه الحيرة اتباعا لذوق الآخرين .

وهذا مشاهد عند سماع مغنية مثلا ، فإنها قد لا تعجبنا إذا سمعناها منفردين ، ولكن سماعنا لها جماعة ، واستحسان بعضنا لها ، وتعبير هذا البعض عن إعجابه بقوله : آه أو ياسلام ، يجعلنا نميل معهم إلى الإعجاب والاستحسان .

وقد عرف المغنون هذه القاعدة النفسانية ، نعى الإيحاء العام ومشاركة الناس وتقليد بعضهم بعضا ، فاستأجروا قوما يسمون في لغة العامة « المطيبات » ، وظيفته التهليل والتصفيق فيسايروهم باقي المستمعين .

لذلك صح ما قلناه من أن الذوق اجتماعي لأنه صادر عن جملة التجارب الماضية التي يأخذها المرء من المجتمع الذي يعيش فيه ، ولأن الذوق بمعنى الاستحسان يتأثر بحكم الجماعة تأثرا كبيرا ، حتى ليعد الذوق اجتماعيا لا شخصا ، ولو أنه في أساسه إحساس شخصي .

شفاء

التحليل النفساني

الغمز واللمز

الظاهر والباطن

تخاف من العرائس

كيف تنسى

الإشراح

التحليل النفساني

لا يزال هذا العلم أو الفن على كثرة ما كتب فيه غامضاً ، وهو علم ، وهو فن كذلك ، نغنى أنه قواعد ونظريات وضعها الطبيب فرويد لتفسير مظاهر السلوك البشرى ، وهو فن لأنه طريقة للعلاج ، وشفاء الأمراض النفسانية .

وأحسب أن الأقرب الحديث عن الفن قبل العلم ، فقد نشأ في ذهن فرويد فناً حين كان يعالج ، وقبل أن يظهر بنظريته . وليس اختلاف العلماء فيما بينهم حول هذا العلم إلا من اختلاف مزاولتهم المرضى ، فشكل طريقته .

ابتدأ فرويد مع مدرسة شاركو الفرنسية بعلاج الأمراض العصبية بطريقة التنويم المغناطيسى ، ولكن هذه الطريقة تؤدي إلى صعوبات كثيرة ، منها أنه من الصعب تنويم كل مريض ، إذ منهم من يأبى ويقاوم ، والثانية أنه حتى إذا نام المريض فلا يجب أن يشفى ، أى أن الشفاء لم يكن مضموناً مؤكداً عند استعمال التنويم المغناطيسى ، وقد تأيد ذلك لديه عندما ذهب إلى مدرسة نانسي بفرنسا ، وكانت تعالج بطريقة التنويم ، وتزعم شفاء كل طارق بالإيماء ، فلما اتصل بأطباء المدرسة أنكروا هذا الزعم . فعاد فرويد إلى فينا ، واشتغل مع طبيب آخر يسمى « بروير » وجاءت سيدة في أحد الأيام إلى بروير فعالجها بالتنويم حسب المألوف ، وكانت مريضة بالهستيريا ، فرأى أنها وهى واقعة تحت التنويم تذكر أشياء لا تستطيع تذكرها فى اليقظة فاتبع بروير طريقة « كلام » المريض ليستخرج ماضيه . واحتاروا فى تسمية هذه الطريقة حتى لقد اقترحوا لها اسم « التطهير » كأن المتاعب والخاوف التى أتراكم فى باطن النفس تحتاج إلى تنظيف .

ثم انصرف بروير عن هذا الضرب من العلاج جملة ، وذلك لأن إحدى مريضاته وقعت فى حبه حباً شديداً ، مما يجعله يعتقد فى خطورة هذه الطريقة بالنسبة للطبيب ، وفكر فرويد فى هذا الأمر ، ورأى أن المريضة لا تحب الطبيب لذاته بل لأنه

بديل ، عن شخص آخر ، فنقلت الحب الذى تخفيه لحبيبها إلى شخص الطبيب ، وقد استفاد منها هذه الحقيقة فى تكوين نظريته ، نعى نظرية البديل والانتقال .
نقول إن التحليل فن ، لأنك إذا تعلمت قواعد هذا العلم من ألفه إلى يائه ما استطعت أن تكون طبيباً نفسانياً إلا إذا توفرت فيك موهبة خاصة مستمدة من مبدأ التنويم ، نعى قوة التأثير والإيحاء من جهة ، وقوة الجاذبية التى تجعل المريض يطمئن إلى الطبيب ، وهذه القوى لا تتوافر فى كل طبيب ، بل لا يمكن تعلمها فى بعض الأحيان . والعلة فى ذلك أن المريض سوف يفضى بأسرار نفسه إلى الطبيب المعالج ، فإذا لم تكن عنده ثقة فى هذا الطبيب وإطمئنان إليه ، فسوف يتوقف عن الحديث والكلام ، والكلام هو أساس العلاج .

ونستطيع أن نشبه طريقة العلاج فى التحليل النفساني بالاعتراف على يد القسيس . ذلك أن حفظ الجريمة فى باطن النفس يجعل المرء يحمل عبئاً ثقيلاً لن يتخلص منه إلا إذا أفضى به ، فإذا اعترف ولو إلى صديق ، أزاح عن نفسه عبء السمور بثقل الذنوب .

وقد استفدت من هذه الحقائق فى العلاج ، ولذلك أنصح المريض باتخاذ الصديق الصادق الذى يستطيع أن يصارحه بكل شيء دون خجل ، وأنصح بشيء آخر وهو الزواج ، لا على أنه يحل مشكلة الصلة الجنسية ، بل لأنه يربط الزوج بزوجته بحبها ويسكن إليها ويودعها أسرارها ويخفي إليها بذات نفسه . فإذا انعدمت الثقة بين الزوج وزوجته انهارت الحياة الزوجية ولم يعد محل لوجودها .

والعلماء طرق شتى فى الاستماع إلى المريض ، وقد سموا الطريقة التى يتكلم بها باسم تداعى المعانى ، أى أنهم يتركزون المريض يتحدث ، فالفكرة تدعو ففكرة أخرى ، ويظل فى هذا التسلسل الحر دون مقاومة من العقل الواعى .

واشترط بعض الأطباء المعالجين شكلاً معيناً ، أو على الأصح جلسة معينة للمريض ، وذلك بأن يستلقى فى كرسي ورأسه إلى الوراء ، أو ينام على أريكته حتى

يكون جسمه في استرخاء ، ويفقد ضبطه لنفسه ومراقبته لأفكاره . و منهم من يشترط في الحجرة شروطاً خاصة ، في طريقة الإضاءة ، وفي لون الأثاث وما إلى ذلك . ولست أرى إلا أن هذه الوسائل جميعاً ظاهرية أو مظهرية لا تمس جوهر العلاج . يستطيع الطبيب أن يعالج مريضه في الطريق وهو يمشى إلى جانبه . ويستطيع أن يعالجه في أى حجرة ، وفي أى جلسة ، بشرط واحد لا بد أن يتوافر ، هو ثقة المريض في الطبيب ، ثم شيء آخر هو محبة الطبيب ، أو كما يقولون بالأجنبية وجود « سمباتى » بين المريض والطبيب .

أما من جانب الطبيب ، فيلغى أن يقوم بأمرين وهو يستمع إلى المريض : الأول أن يلتفت إلى كل لفظة تصدر عنه ، حتى ولو كانت تافهة ، فقد تكون هذه الألفاظ التافهة ذات دلالة على طبيعة المرض ، وقد تكون بدء الخيط الذى يهدى الطبيب إلى معرفة الداء . والثانى أن ينظر إلى وجه المريض في حالة كلامه ليتبين من ملامح الوجه الانفعالات التى تصاحبه . كنت أعالج مريضاً ، أو على الأصح جاءنى مريض يطلب العلاج ، وكان طالباً يشكو من تشتت الذهن إذا جلس للقراءة والاستذكار فلما ابتدأت أسأله فى العلاقات الجنسية ، وقد اعترف أنه يتصل ببذات الهوى ، لاحظت على وجهه حركة اشتزاز ، فعرفت من ذلك أنه ليس راضياً عن الاتصال بالساقطات ، وكان ذلك مفتاح الداء ، أو هو العلة ، نعى الصراع النفسى بينه وبين نفسه ، أيقبل على النساء الساقطات وهذا أمر ينهى عنه الدين وتشتت له النفس ، أم ينصرف بتأناً عن العلاقات الجنسية ، وهو شاب قد جاوز العشرين ؟ . هذه هى العقدة ، إذا حلت ارتاح المريض .

وليس من الضرورى أن نترك المريض يتحدث على هواه فى عدة جلسات تستنفد وقتاً طويلاً ، ويتقاضى الطبيب عن كل جلسة أجراً ، إذ يمكن اختصار الوقت ، بأن يوجه الطبيب إلى المريض أسئلة خاصة تضرب فى الموضوع إلى الصميم . وكلما انكشفت له مسألة ، انتقل إلى غيرها ، حتى إذا عثر على المفتاح الذى يهديه إلى علة الداء جعل الأسئلة كلها تدور حول هذا المحور .

الغمز واللمز

قال صاحب المصباح: غمز غمزاً أشار إليه بعين أو حاجب . وقال الفيروزبادي في المحيط غمز بيده شبه نخسه ، وبالعين والجفن والحاجب أشار ، وبالرجل سعى به شرا . والأصل في اللمز الإشارة بالعين ونحوها ، والعيب أيضا .

فالغمز حركة تبدو في الغالب على الوجه ، وعلى التخصيص في العين ، فهو إشارة ، والإشارة تعبير ، والتعبير لغة ، واللغة دلالة على معنى يخطر بالبال ، أو شعور يختلج في النفس .

فإذا تأملت شخصا من الأشخاص رأيت من ظاهره غمزات يختص بها ، هي أشبه باللوازم التي لا يستطيع عنها حولا ، ولكنها على كل حال دليل على نفسية هذا الإنسان .

ويزدهب فرويد صاحب التحليل النفسي إلى أن كل ما يصدر عن المرء ، حتى لو كان تافها ، فهو معبر عن باطن هذا الشخص ، بل إنه يعتمد على هذه الاختلاجات القسرية في معرفة حقيقة النفسية الباطنة . وهذه إحدى الطرق التي يعتمد عليها في التحليل النفسي بعد النظر في كلام المريض ، نعتي الحركات والإشارات وسائر ما يظهر على الوجه من تعبيرات ، أو مانسميه تجوزا بالغمز واللمز .

والأساس الذي يعتمد عليه فرويد في مذهبه هو أن حياة الفرد خاضعة للأسباب والمسببات ، فهناك حتمية نفسية لا مفر منها ولا مهرب عنها ، وكل إشارة تدل على شيء وتحمل معنى من المعاني الذي يقصد إليه المرء ، إلا يكن عن شعور ، فهو عن اللا شعور .

وأظهر حركات الغمز ما يظهر من المرأة وهي ترقص حاجبها حين تتكلم ، وهي لا تقصد بذلك إعانة السامع على الفهم ، بل تقصد إلى الإشارة الخفية إلى الرجال ، تلقت نظرهم ، وتدلل على وجودها ، وتوحي إليهم أن يسعوا إليها ، وهذه فطرة

الآتي التي تعمل على اجتذاب الذكور . وقد تعمل إحداهن هذه الحركة تقليداً ،
ولكنها تدل على أنها قد صادفت من نفسها هوى .

وليس هذا من حسن الأدب ، وقد نهوا عنه ، وهو أشيع في العامة منه في
الطبقة التي تحكم نفسها وتؤدب أبنائها وتذب الفطرة الأولى ، فالمرأة التي تفعل
هذه الغمزة لعوب تعجب بذاتها وتسمى إلى فتنة الرجال .

أما الرجال فإذا غمزوا بالعين والحاجب ، وكانت الغمزة ثابتة في الطبع ، فإنها
تدل على الرغبة في إخفاء بعض الأسرار ، والإشارة إلى السعي بالضرر والوقعة
وفي ذلك قيل : إن كل لبيب بالإشارة يفهم . وكأنه بهذه الإشارة يدل على عيب
من يتحدث عنه ، فيقول : لقد رجحت تجارتك ، ثم يغمز بعينه ، فتكون الغمزة
دليلاً على أن الربح من طريق غير حلال . ومن هنا جاء نقل معنى الغمز واللمز
بمجرد الإشارة والتعبير إلى العيب ، فكانت المغامز هي المطاعن في الناس . وقد
نهى الله عنها ، قال تعالى في محكم التنزيل : ويل لكل همزة لمزة ، قيل نزلت هذه
الآية في الوليد بن المغيرة أو في أمية بن خلف أو غيره ، واغتيابه لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وغضنه منه . كأن الهمزة واللمزة هو الذي أصبح عنده الطعن
في الناس ملكة راسخة فيه ، ويعنيها في هذا الصدد أن هذه النزعة الباطنة تصحبها
الإشارة الظاهرة ، فستدل على الظاهر بالباطن ، وبذلك يصح مذهب فرويد .
وهناك غمزات أخرى ، بمعنى الإشارة لا بمعنى العيب ، تظهر على الوجه وتليق عن
أمر خفية باطنة . ونحن نعلم من التحليل النفساني أن الإنسان كثيراً ما تنتابه
أمر يحاول جهده أن يخفيها ، لأنها لا تتفق مع الدين أو العرف والتقاليد . غير
أن هذه الأمور مهما يحاول صاحبها إخفاءها فلا بد أن تظهر ، وأن تعبر عن نفسها
قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
جاءني شاب يطلب التحليل ورأيت على وجهه إشارة فهمت منها أنه يستعمل
العادة السرية ، بل إنه يسرف في عملها ، وهذه الإشارة هي لوكة الفم كالذي يستدر

ريقه ، فضيقت عليه الخناق في السؤال فلم يستطع الإنكار ، وقد لاحظت انتشار هذه الحركة عند الشباب بوجه خاص ، ولا تجدها عند الكهول .

وحركة أخرى لا تخطئها العين لأنها تبرز في الحذ وعند ركن الفم ، وهي الدليل على التقرز والاشمزاز . والأصل فيها أنها حركة عصبية غير إرادية تحدث عند تناول طعام لا تراح إليه النفس ، ثم تنتقل حركة التقرز والاشمزاز إلى نظرة المرء من هذه الدنيا ، فلا تعجبه أحوالها . والمتشائمون أكثر الناس غمراً بوجعهم ، وإمساخة عن الناس ، وهنا تجتمع الغمزة بمعنى القدح في الأعمال والعيب في الناس ، بالغمزة وهي الإشارة عن التقرز والاشمزاز .

وقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الأمراض النفسانية ترد إلى علل جسمية وحاولوا علاج النفس بعلاج الجسم . وهو مذهب فيه كثير من الصواب ، ولكنه ليس صواباً كله . وأكبر الظن أننا لو عالجتنا معدة المتشائم أو كبده أو أى عضو آخر من جسمه يكون مريضاً لارتاحت نفسه ، ونظر إلى الدنيا نظرة أخرى فيها كثير من الابتسام وكثير من التفاؤل ، وبطلت الغمزات التى يختلج بها رجهه وتدل على الاشمزاز والضيق والتبرم ، وذهب عنه الحسد والحقد الذى يملأ قلبه فيدفعه إلى مهاجمة الناس والنيل منهم والقدح فيهم ، وبطل ما يبدو فيه من الغمز والليز .

قالوا وهذه الغمزات أو الإشارات الثابتة والاختلاجات المتأصلة تلح على صاحبها ، ويصعب عليه الإقلاع عنها .

ذهب أحدهم إلى طبيب ، فأجرى له عملية جراحية فى العضلة التى تختلج فى وجهه ، واستأصلها ، فظهرت الاختلاجة فى مكان آخر ، بما يدل على أن العلة أعمق . وقالوا : إذا كان المرء هادئاً منبسط المزاج قلت هذه الغمزة أو الاختلاجة ، فإذا احتاج وثار أو انفعل ازدادت وظهرت ، فالداء جسمانى لا نفسانى .

الظاهر والباطن

سألني شاب من طلبة الجامعة علاجاً يزيل الهم ويدفع القلق ويجلب الهدوء والاستقرار . فوصفت له علاجاً سريعاً أكبر الظن أنه قد يفيد ، فقلت له : احلق ذقنك . وكان على شبابه وصغرسنه يرسل لحيته أو على الأقل لا يحلقها بحيث لا تترك أثراً من الشعر . وعجب الشاب من هذا الكلام ، ولم يطمئن إليه ، ولعله فهم أنني أسخر منه ، أو أنني أعبت به ، فسأل عن العلة في ذلك .

قلت له : ظاهر الإنسان دليل على باطنه ، وإرسال اللحية شيء ظاهر يدل على مخالفتك للإجماع من جهة ، وعلى عدم العناية بنفسك من جهة أخرى .

قال : وهل تعتقد أن تغيير الظاهر يفيد في تغيير الباطن ؟

قلت : هذا مذهب من مذاهب علم النفس معروف ، ينسب إلى صاحبه وإيم جيمس المشهور ، وقد اشترك معه في بسط هذه النظرية عالم آخر يسمى لانج ، فسميت النظرية ، باسمهما معا أي جيمس لانج ، وخلاصة النظرية أن الباطن يؤثر في الظاهر ، وأن الظاهر يؤثر في الباطن . والمقصود بالباطن هنا المشاعر النفسانية الداخلية كالخزن والفرح والألم واللذة والخوف والرجاء والقلق والغضب وما إلى ذلك . وكل حالة من هذه الأحوال التي تشعر بها تؤدي إلى مظاهر جسمية خارجية مشاهدة ، أو الأصح أن نقول إنه في الوقت الذي توجد فيه هذه الحالة تصحبها مظاهر خارجية فالخزن يصحبه البكاء ، والفرح الضحك ، والخوف اصفرار ووجل . وكما أنك إذا حزنت أغرورقت عيناك بالدموع إذا كان الحزن شديداً ، كذلك إذا تعمدت إزال الدموع من عينيك شاع الحزن في نفسك . وفي ذلك قالوا : اضحك يضحك لك العالم ، لان الضحك في ذاته ، مع أنه مظهر خارجي ، يفضي إلى إشاعة السرور في النفس ، وقد يكون المقصود من هذا المثل السائر شيئاً آخر هو نظرة الإنسان إلى العالم أهي نظرة تشاؤم أم تفاؤل ، نظرة سوداء قائمة أم نظرة بيضاء باسمة .

قال صاحبنا : إني لا أحلق ذقني لأنني لا أهتم بذلك .

قلت له : وهذا ما أريد أن أصل إليه ، أن تهتم بنفسك وتعنى بها ، لأن عدم الاكتراث بالنفس والمجتمع الذى تعيش فيه ضعف ، وهروب من الواقع ، وابتعاد عن موكب الناس ، ولذة الإنسان فى مسابرة للجماعة ، لأن الاجتماع فطرة فيه ، والعزلة شذوذ .

الواقع أن اعتراض الشاب وجيه لأن العلة الدفينة لا يكفى فى ذهابها مظهر براق ، فالمظهر يغطيها ولكنه لا يزيلها . مثل الباطن والظاهر مثل خراج فى داخل الجسد وصديد يظهر على سطح الجلد ، ولاخير فى علاج الصديد بأن نلفه بأربطة نظيفة ، بل ينبغى استئصال الداء من أساسه ، وعندئذ فقط ينقطع هذا الصديد الظاهر .

وأول من نظم العلاقة بين الباطن والظاهر ، وفسر الظاهر بالباطن هو فرويد صاحب مذهب التحليل النفساني . وهو يقسم الحياة الإنسانية قسمين : الشعور واللاشعور ، فالشعور هو هذا السلوك الذى يبدو لنا ونشعر به ، واللاشعور أمور باطنة موجودة فى داخل النفس وتؤثر فىنا بدون أن نشعر . إننا نحاول إخفاءها وأن نسدل عليها الستار ، ولكنها مع ذلك تظهر بين حين وآخر . وقد اعتمد فرويد فى تحليله النفساني على ثلاثة أشياء ، الأول : الاستماع إلى كلام المريض فقد تبدو منه لفظة تعد من فلتات اللسان وتعبر عن مكنون النفس ، فيتلفها الطبيب ويمسك بها أول الخيط الذى يهديه إلى العقدة النفسية . والثانى الإشارات والملاحم والإيماءات ، ولذلك يلتفت الطبيب وهو يستمع إلى المريض إلى كل إشارة تصدر عنه لأنها تنم عن باطنه . وقد تكون هذه الملاحم ثابتة مع الإلف والعادة مثل إرسال اللحية عند صاحبنا الذى نتحدث عنه . والثالث تفسير الأحلام وهى عند فرويد ذات دلالة قوية على سريرة النفس . فالصور التى يراها النائم فى حلمه رموز تعبر عن رغباته الباطنة ، والعقل البشرى يلجأ إلى هذه الرموز إمعانا فى الإخفاء ، ولكنها لا تخفى عن المفسر الماهر .

ويحاول فرويد أن يفسر جميع الظواهر الإنسانية تفسيراً جنسياً، ووضع قاموساً للأحلام يستند إلى هذا الأساس، فالشجرة والعصا وفرع الشجرة، وكل شيء طويل يدل على عضو التناسل الذكر، والصندوق أو العربة وكل شيء مقفل يدل على عضو الأنثى. وهذه ولا ريب مغالاة في التفسير، ولنا في تفسير الرموز التي تظهر في الأحلام رأى آخر ليس الآن موضع بسطه.

والإخفاء قد يكون مقصوداً وقد يكون غير مقصود. ولسنا نجد أنواع الحيوان تنقسم إلى ظاهر وباطن كما هي الحال في البشر. ومن النادر أن نجد إنساناً ظاهره هو باطنه. وهل تستطيع أن تعلم إذا سلمت على شخص فرح بك وهش إليك وابتهام لك أنه يحبك ويريدك، ومن يدري لعله يستثقلك ويود مفارقتك، ولكنها الضرورة الاجتماعية أو آداب السلوك أو ما يعبر عنه بالاصطلاح الاجنبى «بالإتيكيت» الذى يقتضى حسن الوفادة وإظهار السرور حين الاستقبال، وما فى القلب فى القاب، وهذا هو الرياء أو النفاق.

ولا يستطيع كل واحد أن يضغط على عواطفه ويخفى ما فى صدره ويظهر خلاف ما يبطن، فهذه موهبة لا يعرفها إلا البارعون فى صناعة التمثيل، ومن أقوال شكسبير إن الإنسان يمثل على مسرح الحياة. ويقول الشاعر العربى ومهما تكن عند امرئ من خليفة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم
أما الإخفاء غير المقصود، أو التلقائى، فوجوده عند كل شخص بطبيعة الحياة الإنسانية التى تقتضى منذ الصغر إخفاء كثير من الأمور، وأبرزها الحياة الجنسية وما يتصل بها من حب وبغض، وهذا الإخفاء، أو الكبت فى لغة علم النفس، مفيد للحياة الشخصية، فالأم التى تفقد ابنها الوحيد لو ذكرت على الدوام لاستمر حزنها وأفسد صحتها، ولكن الطبيعة تدفعها إلى اللسيان حفظاً لحياتها. فإذا ألحت فى التذكر فقد تصاب بمرض اللسيان، حتى إذا سئلت عن ابنها أنكرت أنها كانت ذات ولد. فانظر إلى الطبيعة وكيف تعمل على حفظ الكائن.

خذ مثلا الكرم ، فهو خصلة أخلاقية ظاهرة ، وهو من صفات الأعراب لأن البدو مضطرون إلى ذلك ، فإذا حل ضيف في الصحراء فأين يأكل إذا لم يقدم له مضيفه الطعام . ولسكننا نعيش في المدينة حيث الحاجات متوفرة ، ويعيش كل إنسان بنظام خاص ، وفي حدود خاصة ، فكيف يكون المدني كريما مع هذه الظروف . في مصر لا يزال الناس يعيشون كما كان البدو يعيشون ، أى يضطر صاحب البيت إلى الاستدانة حتى يقوم بواجب الضيافة ، وهو يلعن في سره ذلك اليوم الذى حل عنده الضيف . إنه يفعل فى ظاهره على خلاف باطنه . أما فى إنجلترا فلا يقدم صاحب الدار لزاره شيئا ، بل لا يستقبله إلا بميعاد سابق ، ولعله حينئذ يقدم له فنجانا من الشاي ، وهؤلاء قوم يواجهون الحياة الواقعية بما فيها من حلو ومر ، ولا يحاولون أن يكون الفرق بين باطنهم وظاهرهم كبيرا ، حتى لقد كان الوزير فى أثناء هذه الحرب يلبس بدلة مرقعة ولا يأنف من ذلك . فإذا شئنا الإصلاح الحقيقى فعلينا بعدم الإسراف فى المظاهر ، حتى يكون الطاهر مطابقا للباطن .

تخاف من العرائس

قالت إنها تخاف من العرائس ، فتبادر إلى ذهنى أنها تخاف من الفتيات فى سن الزواج ، وقد أعلنت خطوبتهن وأصبحت الواحدة منهن « عروسة » كما هو الاصطلاح فى تعبير العامة . وأيد هذا الظن أن السائلة فتاة حول العشرين من عمرها فقلت لها : ولماذا تخافين من العرائس ، هل ترهبن الزواج ولا تزيدنه ؟ قالت : لا ، ليس الأمر كذلك فإنى أعنى تلك العرائس التى يصنعها الناس للزينة أو التسلية ، ويتخذها الأطفال أداة للهو واللعب والعبث . ثم نطقت بالفرنسية « پويه » . ورأيت أن الأمر ليس سهلا كما تصورت فى أول الأمر . فطلبت منها زيادة الإفصاح والبيان .

هذا وأنا آخذ حالة الفتاة مأخذ الجذ ، فهذا أول شرط في التحليل النفساني .
قالت : إنى أخجل من نفسى خجلا شديدا ، ولا أحب أن أفضى لأحد بأمرى
حتى لا يهزأ بى ، فأنا أعلم أن العرائس لا ضرر منها ، وهى لا تؤذى ، ولا تملك نفعا
ولا ضرا ، ثم إنى بلغت من السن ما لا ينبغي أن ينزل بقلبي الخوف من هذه الأشياء
التي لا تليق إلا بالصغار من الأطفال . وبلغت من الثقافة ما أعلم معه علم اليقين .
أنا نحن الذين نصنع هذه العرائس بأيدينا ، فكيف نخاف منها ؟

وكانت حقا على درجة من الثقافة . فقد تلقت العلم فى مدارس فرنسية ، وهى
تشتغل الآن مدرسة فى مدرسة ابتدائية .

ثم استطردت قائلة : فأت ترى أن هذه الحالة تسبب لى متاعب كثيرة ،
وترهقنى من أمرى عسرا . فأنا لا أطيق أن ألبس « عروسة » ، وأضطرب اضطرابا
شديدا إذا دخلت حجرة فوجدت فيها شيئا من ذلك فأخرج على الفور منها .
ولهذا السبب رفع أهلى من البيت كل عروسة ، وكل تمثال للزينة ، لأننى أخاف
كذلك من التماثيل . وإذا علمت أن صديقة من صديقاتى تحتفظ فى بيتها بعرائس
أو تماثيل ، أن أبيت أزورها دون أن أبدى السبب الحقيقى ، لأنه مضحك حقا .

ثم إنى لا آمن إذا دخلت بيتا ، ودخلت فى غرفة تخلو من العرائس ، أن يدخل
علينا طفل يلهو بعروسة فى يده ، وعندئذ يحدث لنفسى هذا الخوف الذى يبلغ
حد الفرع ، فأستأذن فى الحال وأنصرف ، وأنا فى موقف شديد الحرج بالنسبة
إلى نفسى وبالنسبة إلى صديقتى .

ثم تصور أن لى أختا تكبرنى سنا ، وهى متزوجة وذات أطفال ، وقد حرمت
على نفسها شراء العرائس لأبنائها حتى يتيسر لى زيارتها ، وتستقبلنى فى دارها .
فانظر مبلغ العنت الذى كنتُ سيبه .

قلت لها : لعل هذه العرائس قبيحة المنظر ، تخيف حقا ، فهى لذلك تبعث على الرعب .
قالت : الغريب أن العروسة كلما زادت جمالا ازدادت خوفا .

فالتقطت منها هذه الكلمة أعني ، العروسة الجميلة ، وقلت في بالي هذا مفتاح أعلم منه سر نفسها . ثم ذهبت ألاحقها بسؤال عن ذكريات الماضي وعهد الطفولة إذ كانت العقد النفسية تتكون في الصغر بل الصبا المبكر .

قالت إنها لا تذكر متى بدأ خوفها من العرائس ، ولكن أهلها يقولون إنها وهي طفلة صغيرة تخاف منها . وأقدم ذكرياتها التي تعيها ، أنهم كانوا يضعون تمثالا من الجبس على هيئة امرأة ذات ملاء سوداء فوق الشباك بالقرب من سريرها ، وكانت رؤية هذا التمثال تفرعها وتبعث في خيالها أشنع الأوهام .

وهذا كله معقول ، فالطفل الصغير قاصر الإدراك ، وقد يكون أصل هذا الخوف ومبعثه إبحام بعض أخوات هذه الفتاة وقولهم لها ما يثير الخوف ، فصدقتهم . واستمرأوا هذا العمل ومضوا فيه ، وأصبحت الفتاة الصغيرة تهرب هذه العرائس ، وترتعش أو ترتعد عند رؤيتها . وثبت في نفسها هذا الخوف مع الزمن وأصبح كما يقولون ، عقدة نفسية ،

قالوا إن " حل " العقدة النفسية يكون بمعرفة صاحبها لها ، واستخراجها من باطن النفس وأغوار الماضي فيبرح عنها الخفاء . وقد علمت صاحبتنا بأمر هذه العقدة ، وعلمت أن ليس في العرائس ضرر ، فما هو السر إذن ؟

فانصرفت إلى البحث عن هذه ، العروسة الجميلة ، التي تخاف منها ، وألتبس في الجمال علة الاضطراب .

وكان من الواضح أن السائلة غير جميلة .

وشرعت أسألها عن أخوانها وعن علاقتها بهم ولها اختان شقيقتان إحداهما تكبرها بثمانية أعوام ، والثانية بعامين . والكبرى متزوجة وصاحبة ولد ، والصغرى لم تتزوج بعد .

وتبين من نبرات صوتها عند الجواب أن بينها وبين أختها الثانية أشياء وأمور فهي أجهل منها ، وأكثر منها حظاً في التعليم ، وتشغل منصباً أفضل منها .

واللحمت في السؤال، فقالت إنها تحترم أهلها وأخوتها ، وقد رباها أبوها تربية
صالحة ، وعلمها أن تقف من أخواتها موقف المحبة والاحترام .

ولكن الغيرة لا تعرف التقايد والحدود الاجتماعية . والواقع لقد قامت الغيرة
الشديدة بين صاحبتنا وبين شقيقتها منذ الصغر، فهي أجمل منها وأحسن منها حظاً
في التعليم ، وأرقى من حيث المنزلة الاجتماعية ، فضلاً عن الغيرة الطبيعية التي تنشأ
بين الاختين إذا كانتا متقاربتين في السن .

إذن فهي في صراع بين الواجب والواقع، بين واجبها نحو أختها وأهلها ، وبين
طبيعة نفسها التي تحدثها بالغيرة .

ولكن ما شأن أختها والخوف من العرائس ؟

ولقد حدث عندها ما يعرف في علم النفس باسم التحويل **Transfer** فقد
حولت خوفها من العرائس وهي الدُمى التي يلعب بها ، إلى أختها لما بين الاثنتين
من مشابهة في معنى « العروسة » والعروسة عند العامة هي الفتاة المخطوبة إلى عريس
أو هي الفتاة في سن الزواج ، فالأخت عروسة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وأكبر
الظن أن الشخص الذي كان يخيفها في الصغر ، أي وهي في سن الثانية من عمرها ،
هي هذه الأخت .

وإذن فقد تعقدت العقدة ، وتحولات من مجرد الخوف من العرائس المصنوعة
للهم ، إلى الخوف من « العروسة الجميلة ، وهذا سر قولها إن العروسة كلما كانت
جميلة كان خوفها أشد . وكان أختها أصبحت رمزاً حولت إليه خوفها وغيرةا وبغضها .
ويؤكد هذا كله ما ذكرته من أنها لا ترغب في الزواج وتمانع فيه ، أو على الأقل
كانت تمانع إلى عهد قريب .

ويؤيد ذلك أيضاً تخشى الأطفال الحديدي الولادة أي الذين في سن الرضاعة
قالت إنها ذهبت عند أختها الكبرى وهي متزوجة وذات أطفال ، وعرض لأختها
أمر يقتضي أن تخرج من الغرفة على عجل ، فأعطت ابنها الرضيع إلى صاحبتنا ،

والتمست منها أن تهدىء من روعه إلى أن تعود . وحملت الفتاة الطفل بين يديها
وهي ترتجف من شدة الخوف ، وكادت تلقى به إلى الأرض .

ونصحها الناس بأن تصنع عروسة من قماش لعل ذلك يجعلها تألف بطريقة عملية
هذه العرائس فلا تعود زهبا . وفعلت ذلك ، فقصت القماش ، ووضعت داخله
القطن ، حتى أوشكت العروسة أن تكتمل ، وصورت رأسها ، ولم تستطع أن تمضي
في صنعها إلى النهاية ، وبرز الخوف في نفسها .

وليس العلاج عسيرا ، فإذا عرف السبب بطل العجب وذهبت آثار الاضطراب ،
والمهم أن تقتنع المريض بصحة الأسباب ، وأن تحمل على علاجها .

أما عز ، السبب الأول وهو الخوف من العرائس الذي كان يقع في الصغر ،
وصحبها إلى الكبر ، فيرجع إلى الوهم والتهويل . وقد عرفت أن هذا الوهم باطل
ولا ينبغي التهويل فيه .

أما عن السبب الثاني وهو الغيرة من أختها ، فقد وجدتُ بعض المشقة في ترويض
نفسها على المحبة الأخوية الصادقة ، ذلك أن القضاء على الأحوال النفسية التي تثبت
في النفس مع طول الزمن من أشق الأمور ، مثلنا في ذلك مثل من يعتاد التدخين
أو لعب الميسر أو شرب الخمر ، لايسهل عليه أن يقطع عادته التي ألفها بين يوم وليلة .
وقد رسمنا لها الطريق المؤدى إلى كبح جماح الغيرة ، وفي القضاء على الغيرة من
أختها على وجه الخصوص القضاء على خوفها الموهوم من العرائس .
والعلاج الحاسم هو الزواج .

كيف تدمسى

سمعت في المذياع أغنية مشهورة لعبد الوهاب باللغة العامية يقول فيها :
انسى همومك وخلي قلبك خالي واحبس دمعك دا دمع عينك غالي

فقلت في بالي : والله لقد أصاب الناظم الحق ، وأخلص في النصيح ، ولسكنه لم
يبين السبيل ، وليس النسيان أمرا يسيرا ، بل هو شاق عسير .

ولعلك تعجب كيف ينصح الناصح بالنسيان مع أن الناس ينشدون ، التذكر ،
ويشكون من كثرة النسيان ، وأشد الناس شقاء بطلب التذكر هم الطلبة ، لأنهم
يحاولون استذكار علومهم حتى يؤدوها في امتحان آخر العام ، فيسهرون لذلك
الليالي وينظرون في السكتب مرارا وتكرارا ، ولسكنها لا تثبت على حال . فكيف
ينصح الناصح بالنسيان ، ولماذا ؟

حقا تعترى الإنسان أمور لا يجد بدا من أن يخفيها عن نفسه ، لأن ذكرها
يثير في نفسه السكران ، ويهيج منها الأشجان ، ويجدد الأحزان ، بل قد يصل
به الألم إلى حد البكاء . أعرف سيدة اختطفت المنية ابنتها وهي في ميعة الصبا ، فلم
يغمض لأمرها جفن ولم تحف لعينها دمة سنتين ، حتى هزلت واضطربت وسامت
بها الأحوال ، ولعلك تسأل ما حالها الآن ؟ لقد نسيت مع الزمان ، وهذه سنة
الطبيعة ، فكل شيء ينسى مع البعد والترك ، وقيل في الأمثال : البعيد عن العين
بعيد عن القلب ، . وقيل أيضا : آفة العلم الترك ، ، ولكن ما الحيلة إذا كانت
العلة حاضرة على الدوام ، ولا تبعد عن العين ، وقد تظهر مع الأوهام .

ونحب قبل أن نذكر الدواء أن نشخص الداء . فنقول إن أسباب الهموم ثلاثة :
مادية ، وعاطفية ، واجتماعية .

أما المادية فترجع إلى عاهة تصيب الإنسان إما من أصل المولد كالذي يولد
شديد القصر فيرى نفسه باللسبة إلى غيره من الناس شائه القوام ، أو يكون ذا
عضو من أعضاء البدن غير متناسب . كتب إلى أحد الناس يقول إن أنفه ضخم
كبير إلى حد يشوه وجهه ، وإن النساء تسخر منه فكيف يفعل مع هذا الداء الذي
ابتلى به ، فأجبتة قائلا : إن الجمال جمال النفس لا جمال الوجه ، ولقد كان سقراط
من أقبح خلق الله ومع ذلك اجتذب شباب الأثينيين بحسن منطقته ولطف سيرته ،
وقد أصبح من الميسور بعد تقدم العلم أن تصلح العيوب الجسمية فيبدو المرء في

صورة طبيعية إلا ما كان مما لا حيلة للطب فيه ، وما لا ينفع فيه علاج .

والعلة الثانية هي العاطفة تلك التي تمس القلوب ، وهي تلك التي عنها الشاعر وغناها المغنى ، نقصد هجر الحبيب وفقد الولد ، وانقطاع جبل الصداقة . وهذا طبيعى لأن الحب والابوة والأخوة والبنوة والزوجية والصداقة تنشأ كلها بعد إلف واعتياد ، وتتأصل مع طول الزمان ، ولذلك يتألم كل واحد من هؤلاء إذا فقد أليفه وفى ذلك قالت الخنساء ترى أخاها صخرًا وتشكوا ألم الذكر فقالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخرًا

وأذكره لكل غروب شمس

وقال مجنون ليلي

أريد لأنسى ذكرها فسكأنما

تمثل لى لىلى بكل سبيل

والعلة الثالثة هي الاجتماعية التي تمس المنزلة . ومنها خلقية تسمى إلى سمعة صاحبها كالذى يضبط فى بيت من بيوت الدعارة ، فهذا شيء لا يليق ولا يود ذوو المنزلة أن يعرف عنهم ذلك ، فهم يستخفون ، فإذا وقعت الواقعة لجأوا إلى الحيلة .

قرأت فى الصحف قصة ذلك الذى دخل عليه بوليس الآداب فرأى فى الشرفة حصيرا يتحرك وضبط فيه فيما يقال شخصا محترما ، فانظر كيف يتوارى مثل هذا الإنسان .

وهناك أمور تمس المنزلة الاجتماعية على نحو آخر هي المركز الأدبى ، ولذلك يتألم الموظف إذا فاته ترقية . وامل أعجب ما فى نظام الحكومات هو هذا النظام الذى يسمونه بالدرجات التى ترفع بعضهم فوق بعض ، مع أن الديمقراطية الصحيحة تقضى بالمساواة متى تساوت المؤهلات .

وقد نخدش المنزلة لأمور اعتبارية تجرى مع التقاليد ، كمن يسمع قذفا أو سبا أو اعتداء على العرض . والأخذ بالنار فى أهل الصعيد مشهور معروف ، فلا تنام

عين أحدهم حتى يقتل من قتل أباه أو أخاه ، ولو مضى على ذلك الحادث سنين عدة فهذه هي جملة الأمور التي لا تخرج عنها الهموم ، فكيف السبيل إلى علاجها وما هي الوسائل التي ننصح بها كي نبلغ النسيان .

الحق أن الطبيعة تهدف دائماً إلى الخير ، وهي تعمل لصالح الكائن الحي بالفطرة . والطبيعة تعرف أن فرط الألم شديد الضرر ، بالغ الأثر ، فهي تعمل على تخفيفه بإحدى طريقتين إما شيئاً فشيئاً أو بالتدرج على مر الزمان ، وإما دفعة واحدة وهذا يفضي إلى نوع من المرض النفساني . فنحن نعرف أن كثيراً من الأمهات اللاتي فقدن أبناءهن وكان إلحاح الذكر مضرأ بهن ، ينسين هذه الواقعة حتى ليمنى من صفحة الذهن محو تاماً ، فتقول : لم يكن لي ولد ، ولا تعرف اسمه وتنسى كل شيء عنه . وهذا هو النسيان التلقائي الذي يصدر من المرأة احترازاً من ضرر التذكر . إلا أن هذا النسيان المفاجيء غير المألوف وغير الطبيعي ، إن هو إلا ستار يخفي الهم ولا يزيله ، فتظل الحادثة مخفية في أعماق النفس تحاول أن تظهر ، ولا بد أن تظهر في أشكال شتى ، كفلمات اللسان ، والإشارات والإيماءات والأحلام بوجه خاص ، ويعتمد فرويد كما نعرف على تفسير الفلمات والرموز والإشارات والأحلام في معرفة هذه الهموم التي يخفيها صاحبها عن نفسه ويتركها في الأعماق . روى هذا العالم قصة فتاة نسيته خاتم الخطبة على حوض الحمام بعد أن غسلت يديها ، ولم تتذكر أين وضعته ، وفسر ذلك بأن الخاتم رمز الزواج ، وأن هذه الفتاة لا تحب خطيبها وتريد أن تنساه .

ولذلك كان علاج الهموم بضغطها ، أو باصطلاح علماء النفس «بكبتها» ، علاجاً غير ناجح ، لأنه يخفي الداء فلا يلبث أن يظهر في صورة أخرى قد تنتهي إلى مرض نفساني خطير .

ومن الناس من يلجأ إلى الانغماس في المخدرات وشرب الخمر يلتمس فيها مهرباً من الهموم ، وينسى فيها ما يحس من آلام نفسانية . وليس هذا بالعلاج الصحيح ، لأنه يخرج من علة إلى علة أعظم وأخطر .

وعندى أن الانغماس فى المخدرات راجع إلى محاولة النسيان ودفن الهموم ،
ولذلك كان علاج المدمنين يتطلب تحليل نفسياتهم لمعرفة ذلك الذى يريدون إخفاءه .
أما العلاج الصحيح فهو فيما يختص بالعلل المادية أن نحاول تخفيفها إن أمكن .
فإن لم نستطع فلا حيلة لنا إلا أن نقبل الأمر الواقع ، ثم نعتوضه بكمال النفس
والانصراف إلى الجليل من الأمور ، ولنا فى كثير من عظماء الرجال القدوة . فهذا
روزفلت لم يغب ذكره بعد عن الأذهان كان مشلولاً ، ولكنه كان رئيساً لأقوى
دولة على ظهر الأرض ، وكان يقابل رؤساء الدول كسيحاً يجلس على كرسىه فلم
يجد ذلك عيباً يسيء إلى نفسه .

أما العلة العاطفية فينبغى أن يعلم كل ذى علاقة بغيره كالحب بحبيبه أو الزوج
بزوجته ، أو الأب بابنه أن الموت حق على كل إنسان وإنى لصاحب ولد ولكنى
أقول لنفسي قد يموت أحد أبنائى يوماً . فإذا وقعت الواقعة حزنت لها الحزن
اليسير ، ولم تفعل فى نفسى ذلك الأثر الذى تفعله فى نفوس أولئك الذين يعتقدون
أن أبناءهم مخلدون .

أما العلة الاجتماعية فإن كانت خلقية فينبغى على المرء أن يتجنب كل ما يشين
حتى لا يقع فى المحذور ويسىء إلى نفسه . والوقاية خير من العلاج .

أما إذا كانت العلة تمس المنزلة الاجتماعية فينبغى أن يواجه الإنسان الحقائق
وأن يحلها حلاً حاسماً يتلاءم مع الظروف المحيطة بها . فقد رأينا أغنياء فقدوا أموالهم
وملوكاً نزلوا عن عروشهم ، ومع هذا فلم يذهب ذلك بصوابهم ، وإنما قبلوا الأوضاع
الجديدة ، وساروا فى موكب الحياة وقد رتبوا أنفسهم على نظام جديد يتفق مع
هذه الظروف . وهم فى ذلك على حق إذ لاخير فى التلفت إلى الماضى وفى النظر إليه ،
والكلام فى الماضى عبث ، ولك الساعة التى أنت فيها .

ومن وسائل العلاج السفر وتغيير المكان الذى يذكر المرء على الدوام بما وقع
له من أحداث ، ومرجع ذلك إلى قانون معروف فى علم النفس باسم ترابط المعانى

فروية السرير الذي كان ينام عليه الابن يذكر الام بابنها فتشور في نفسها الذكرى .
ووجود الموظفين في الوظيفة التي تخطته فيها الترقية تذكرة بهذا البلاء فيسعى إلى النقل
أو يستقيل . وفي السفر بعد عن مكان الذكريات ، وتجديد للمناظر ، واتصال
بالناس ، وتغيير للحياة ، وإطلاع على أحوال الجماعات .

الانشرائح

الناس فريقان مشرح ومكتب . أو منبسط ومنقبض . فالفريق الأول يميل
إلى الاجتماع بالناس ومساعدتهم وإدخال السرور على قلوبهم . وتمضية وقت سعيد
ينسون فيه هموم الحياة . أما الصنف الثاني من الذين تعلو وجوههم السكابة فإنهم
يميلون إلى العزلة وينفرون من المجتمع .

ونحن نجتمع إلى الإقبال على أولئك الذين تشيع فيهم السعادة لأنها تنعكس من
نفوسهم علينا كأنها نور يضيء أرجاء المكان . ثم نطمئن إلى هذا الصنف من الناس
الذين تعلو وجوههم ابتسامة تدل على امتلاء نفوسهم بالبشر والبهجة والانشراح .
والأطفال أصدق فطرة من الكبار فهم ينصرفون بفيض من النفس البعيدة عن
التعلم والحضارة وكأن سلوكهم بالبصيرة لا بالبصر ، والإلهام لا بالفكر . فإذا
شاهدنا الطفل الحديث الولادة الذي لا يزيد سنه على بضعة شهور وكان نظيفا قد
رضع حتى شبع ، نرى البشر يعلو وجهه ، والابتسامة تنطبع على شفته كأنه ملاك
طاهر . هذه هي الفطرة الإنسانية الصافية ، أو النفس التي لم تفسدها المدنية
والحضارة . فإذا أقبلت على هذا الطفل واتصلت بنفسه شعرت بالبهجة تسرى إلى
نفسك كأنها تلتقل منه إليك وكلما كانت الصلة بالطفل أشد كان التأثير أقوى .
ولذلك كانت الام أكثر الناس تأثرا بحالة ابنها ، سمادتها في سعادته . وكذلك
ينعكس هذا الشعور في نفسك إلى نفس الطفل فإذا ابتسمت له ابتسم كذلك . وهو
يفعل ذلك عن طريق المحاكاة والتقليد ، لأن الملامح الظاهرة تؤدي إلى آثار باطنة

فانطباع الابتسامة على الوجه يؤدي إلى انشراح القلب ، وكذلك انشراح النفس يؤدي إلى انبساط الأسارير . وقد اختلف العلماء أيهما علة في صاحبه ، هل المظاهر الجسمية هي التي تؤدي إلى الأحوال النفسية أو أن الأحوال النفسية هي التي تنتهي إلى المظاهر الجسمية . وبعيننا أن نذكر هذه الصلة بين الجسم والنفس ، وأن الارتباط بينهما وثيق . فإذا علمت ذلك فينبغي أن تظهر دائما بمظهر الانشراح والسرور ، فإن ذلك كفيل أن يدخل السرور على القلب ، ولذلك قيل في الأمثال : اضحك يضحك لك العالم ،

ومن الناس من يعيش في هذه الدنيا مرحا طروباً لا يحمل هما ، ولا يبدو عليه اغتمام ، ولا يلقي عبء الحياة على غيره من الناس . يتمثلون بما جاء في الأثر : ما فات مات ، والموقل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، ولا ريب في أن مثل هؤلاء القوم إذا حلوا في مجتمع أشاعوا فيه جوا من البهجة والانشراح ، وجعلوا للحياة معنى وصبغوا عليها جمالا .

إننا نحس مع هؤلاء المنشرحين من طريقة سلوكهم وحديثهم واهتمامهم بأمورنا والسؤال عن أحوالنا ومد يد المعونة إلينا ، بل من طريقة إشاراتهم ، ومظاهر ملاسهم نحس مع هذا كله أنهم بلغوا السعادة التامة ، والسعادة هي مطلب الإنسانية من قديم الزمان .

وليس من الضروري أن يكون الإنسان سعيداً إذا ضحك أو ابتسم . فهناك ضحك كالبكاء ، وابتسامة كلها تكلف وتصنع ، حتى لقد أطاقوا عليها الابتسامة الصفراء ، لأنها تدل على الحقد والحسد . حدثنا الروائي دستوفسكي أن المرء ليستطيع أن يعلم أخلاق صاحبه من ضحكه أكثر مما يستطيع ذلك علماء النفس في تحليلهم . والضحك كما يقرب بين الناس لأنه يشيع هذا الجو من السعادة والانشراح ، قد يكون سبباً في الإفساد بينهم إذا اشتد المرء من الضحك السخرية والاستهزاء .

ومن الناس من يتشامم من كثرة الضحك . ولذلك يقول العامة في أمثالهم إذا

كثير الضحك بينهم على شيء من الأشياء ، اللهم اجعله خيرا ، وهذا مجرد اعتقادنا شيء .
عن الوهم كالذين يتشاءمون من العدد (١٣) وقد يكون لذلك تفسير مفهوم إذا
علمنا أن الأمور نسبية . فاشتداد الضحك الدال على شدة البهجة والانشراح يرفع
الإنسان إلى حالة يصعب الارتفاع إلى مثلها ، فإذا عاد إلى العمل العادى أحس
بالتفارق بين هموم العمل وخفة العبث .

لذلك نصح القدماء ألا يمعن الإنسان في الضحك لأنه يدل على الخفة والطيش ،
ويعيد المرء عن الجد والوقار . أما المحدثون في ألمانيا الهنارية قبل أن تنهزم وفي أمريكا
حيث تحمل مشعل الحضارة الحديثة ، فإنهم ينصحون بغير ذلك . ينصحون
بالاستمتاع بالحياة إلى أقصى حد ، مادام الإنسان على قيد الحياة . لماذا نعكس صفو
أنفسنا ، ونحمل أنفسنا الهموم في غير طائل . وقد ذهبت هذه الدول الحديثة إلى
نظرية ترمى إلى إدخال البهجة والانشراح على النفوس هي الاهتمام بالرياضة البدنية
في الهواء الطلق . وقد رأيت في ألمانيا قبل الحرب ما يسمى بشباب هتلر يجتمعون
في معسكرات للعمل في الأرض والتدريب العسكرى فكانت من أسعد الجماعات .
وقد عرف العرب قيمة الرياضة البدنية في جلب السعادة إلى النفوس فجاء في وصية
عمر بن الخطاب : علموا أولادكم الرياضة والسباحة ،

وأنا أذهب إلى نظرية جديدة في سبب الانشراح مستمدة من مشاهدة الأطفال ،
فقد رأيت أن الطفل يكون سعيدا ملشراح الصدر تعلمو الابتسامه وجهه ، إذا كان قد
شبع من الرضاعة وليس في جسمه ما يؤلمه ومعدته سليمة لا يعتريه دغص ، فإذا
رأيت الطفل مكتئبا فابحث في معدته . عندئذ نعلم أن سلامة الجسم شرط جوهرى
في سلامة النفس والشعور بالانشراح والانبساط وعلى وجه الخصوص المعدة ،
والمرض بالمعدة والإمعاء مما يؤدي إلى فساد المزاج . ويروى لنا التاريخ كثيرا من
الأمراء والخلفاء والملوك كانوا معدودين فانعكس ذلك على مزاجهم وأدى الى
بؤسهم . وفي الأمثال : المعدة بيت الداء والحمية خير داء ، ولعل الصوم
وهو الامتناع عن الطعام من أعظم النواند في علاج المعدة ، ومن ثم في شعور

الصائم بالراحة النفسية التي ينسبها إلى رضا الله . فإذا علمت ذلك فانظر في معدتك ولا تكثر من الطعام فإن انتظام الجسم يعود إلى راحة النفس .

وبما يؤيد ما نذهب إليه من أن صحة الأبدان هي الأصل في شعور المرء بالبهجة والانشراح ، هو أن الشباب أكثر شعوراً بهذه الحالة من الشيوخ ، مع أن الهموم التي تعرض لهم واحدة ، وإنما الشباب أشد لها احتمالاً ولا يلقى إليها بالا ، ويمضي في طريقه راضياً هانئاً ، وله من فيض شبابه ووفرة حيويته ما يدفعه إلى العمل والإقبال عليه .

وكلما خلصت النفس من هذه الهموم صفت وزال الكدر والغيوم ، وأشاعت في صاحبها بريقاً من السعادة تضيء أرجاء المكان ويستريح إليها الإنسان ، وتقبل عليه الناس وتجد في حضرته متعة ولذة . وكلما كان الإنسان أكثر بشراً كلما اتسعت حلقة معارفه . ولو نظرت إلى عظماء الرجال وقادة الجماعات لرأيت فيهم هذا اللون النفساني الذي نعبر عنه بانشرائح الصدر وانبساط النفس ، ولذلك يكثر أشياءهم ويتعدد أنصارهم .

ومن كانت فيه هذه الصفة أستاذي الشيخ مصطفى عبد الرازق — رحمه الله — فما زرتة يوماً إلا كان دائم الابتسام عن ارتياح وانشرائح ، والله أعلم بما تنطوي عليه القلوب ، وهو الذي يعلم ما تخفي الصدور . ولكننا لانعرف إلا الظاهر ، وما يبدو للعيان . لذلك كان من الخير أن تطوى على نفسك الآلام ، ولا تظهرها لأحد تشكو له الزمان ، لأن الشكوى دليل على الضعف ، وكشف الهموم صغار وعجز ، فإذا بان منك الضعف نزل مقدارك في أعين الناس ، لأنهم يقدرّون القوى ويحترمّون صاحب السلطان ، والسلطان على النفس هو السلم الذي نرقى منه إلى السيطرة على الجماعة .

حقاً لقد أصبح طابع العصر التمتع بالحياة في بشر ، ولسكن الحروب الدامية الحديثة وما صحبها من فتك بالآرواح ودمار واسع النطاق ، كل ذلك أدى إلى ضيق وكرّب في الأمم المهزّمة على وجه الخصوص فلا نظن أن أهلها يحسون بانبساط

النفس وعيونهم تقع كل يوم على مأساة . ومع ذلك فقد ابتكرت الدول حديثاً دواء نفسياً للتخفيف من آلام الحروب وسمته الترفيه ، أى إدخال السرور على النفس . وقد رأينا الجنود يعربدون ويصيحون وينغمسون في الخمر والرقص والصيد . وهذه كلها حيل تلجأ إليها النفس الحزينة لتغطية ما تحس به من ألم ، وقد يما قال الشاعر
« كالطير يرقص مذبوحاً من الألم ، فكثرة الضحك والصيد دليل على علة باطنة ،
وليس دليلاً على راحة صحيحة .

نحن في الواقع ننسى أنفسنا ، ونعود كما كنا أطفالاً نتصرف كما يتصرف الطفل الصغير الذى لا يحمل هما ، وينغمس في اللهو واللعب . وهذا هو السر فى أن كثيراً من الرجال ، والمسؤولين منهم على وجه الخصوص ، لا يتركون لأنفسهم العنان فى التظاهر بالانشراح ، حتى لا يقال عنهم إنهم أطفال ، فيفقدوا المنزلة التى لهم على الناس . ومن هنا يحيا كثير من الناس حياتين ، حياة رسمية فيها جد ووقار ، وحياة خاصة يعوضون فيها عن ذلك الجد الذى يضيقون به . وهذا نفاق اجتماعى يزيد إذا تأخرت الدولة وقلت فيها الحرية . والأفضل أن يُعوّد المرء نفسه على أسلوب واحد لا ظاهر فيه ولا باطن . والأمر راجع إلى نظرة الإنسان للحياة ، فإن كنت متفائلاً شعرت بالسعادة والانشراح .

جوانح ونوازع

الطموح

الغرور

الحسد

المال

البخل

الطموح

يلشأ كل إنسان وفي نفسه نزعة طبيعية إلى الطموح والسمو والتفوق على الأقران والإخوان والخلان .

ذلك أن المجتمع الذى نعيش فيه درجات وطبقات بعضها أعلى من بعض . ولذة المرء فى ارتقاء درجات المجتمع حتى يحس أنه سيد لأمسود ، رئيس لأمروس ، آمر لأمور .

وقد صور الشاعر القديم هذا المعنى الذى فطر الإنسان عليه فقال :

حب الرياسة داء لا دواء له وقل ما يجد الراضين بالقسم
وقال غيره :

هـلاك الناس مذ كانوا إلى أن تأتى الساعة
بحب الأمر والنهى وحب السمع والطاعة

ونحن نجد هذه النزعة فى مملكة الحيوانات . ونستطيع أن نشاهدها فى الدواجن التى نقتديها فى البيوت كالدجاج والديكة التى تلتفخ وتلتفخ وتعتدى على غيرها احتفاظاً بمنزلها ومركزها .

والأمر كذلك فى الإنسان ، إلا أنه يختلف فى الذكور عنه فى الإناث ، ويختلف باختلاف مطالب الحضارة والمدنية والحياة الاجتماعية .

فالطموح فى الرجال يظهر فى شق الطريق إلى المنزلة الاجتماعية ، وفى الحصول على المال . أما المرأة فإنها تطمح فى بيت عظيم ، وفى ملابس ثمينة وحلى غالية تدل على ارتفاع قدرها . فهذا مارك انتوان كان يطمح فى ملك عريض يتربع فيه على عرش روما والإسكندرية ، وتصبح الدنيا فى قبضة يده ، وكان سبيله إلى ذلك الشجاعة

والحرب والجيش والأسطول . وهذه كليوباتره مع أنها سليمة الملك وربة مصر ،
تزين وتتعطر وتحيط نفسها بمظاهر الإناث .

والطموح في الرجال أنواع وأشكال ، وهذا راجع إلى اختلاف المجتمعات .
أعرف شاباً من أسرة عريقة ، يملك أبوه أرضاً واسعة ، ويشغل عنده عدد كبير
من الفلاحين ، وكان صاحبنا كلما نزل إلى الحقل أو مرّ بالطريق الزراعية وهو
راكب عربته وقف له الفلاحون إجلالاً ، وقدموا له التحية احتراماً ، وهو يرد
تحيتهم بإشارة من يده كأنه ملك في رعيته . فلما قدم إلى العاصمة ليلتحق بالجامعة ،
والعاصمة مدينة واسعة مزدحمة بالناس والحركة ، وجد نفسه مغموراً في هذا البحر
من الناس ، لا يقف له أحد يحبيه ، وقد يجلس في الترام إلى جانب الفلاح الذي
يأفئ أن يجلس إلى جانبه في الريف . ولم تعجبه هذه الأحوال ، فلم يكده يفرغ من
دراسته في الجامعة حتى عاد إلى الريف لأنه يحس فيه أنه سيد عظيم .

وهناك من الناس من يطمح في أعلى الدرجات الاجتماعية . وأظنك توافقني
على أن كرسى الوزارة أسمى هذه الدرجات ، لذلك كانت أطماع الشباب وأوهامهم
تطلب هذا المركز العظيم ، فكيف السبيل ؟ رأى الشباب أن أغلب الذين ارتقوا
الوزارة كانوا من المحامين ، فأقبل كثير منهم على دراسة القانون ، وكل واحد منهم
يحمل في نفسه هذا الأمل البراق .

ولكن بعض الشباب يكون أكثر تواضعاً فيرى أن بريق الوزارة مطلب
بعيد المنال ، فيقنع أن يكون كبير الأطباء أو رئيس التجار أو كبير المهندسين وما
إلى ذلك . فهو يسعى إلى الرئاسة في فن خاص . ولا يعاب على الإنسان أن يكون
طموحاً يسلك سبيل الارتقاء ، ولكن أغلب الناس لا يرضون بالواقع ، ولا يضعون
أنفسهم الموضع الصحيح ، ولا يسلكون الطريق السوي المستقيم لبلوغ المنزلة
الرفيعة ، فيبتهدون عن حقائق الأشياء ويهيمون في الخيال ، وهذا علة للمرض .
ولإليك قصة حقيقية تصور كيف يؤدي الطموح بصاحبه إلى الجنون .

كان اسمه المنزلاوى ، ويعرفه كثير من الأدباء المخضرمين من الذين كانوا يجلسون في حى سيدنا الحسين في أحد المقاهى . وكان المنزلاوى في أول أمره خادما في عيادة طبيب أسنان ، ثم صور له الوهم أن يكون طبيبا ، فأطلق على نفسه الدكتور المنزلاوى مع أنه أمى لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان يُعجب بحديث هذه الجماعة الأدبية فحفظ عنهم بعض العبارات ، وهيا له بعض هؤلاء القوم أنه أديب وخطيب وسياسى وصاحب رأى في الأمور التى تشغل الأذهان . وكانوا يقدمونه في الحديث ويسألونه رأيه في شىء من الجد ، حتى اعتقد في نفسه أنه حقا زعيم وسياسى .

وفي يوم من الأيام خرج الدكتور المنزلاوى من بيته ، وكان الوقت صيفا ، وقد خلع أغلب ملابسه ، وارتقى كرسيه في المقهى ، وأخذ يخطب في الناس بما يدور في ذهنه من هذيان . ولم يصبر الجالسون على هذيانه وطلبوا منه السكوت ، فأبى وشتهم ، ثم ضربهم ، فقبضوا عليه ، وذهب إلى مستشفى المجاذيب إلى أن توفى . والجنون هو شدة الابتعاد عن واقع الحياة . والطموح هو الدافع إلى الانفصال عن الواقع وعدم الرضا عنه . ومن يدري كم في هذا العالم من مجانين ، أو على حافة الجنون ، ولكن لا يصدر عنهم شر ، ولذلك لا يبعثون بهم إلى البيمارستانات . وليس للطموح حد ، فالنفس البشرية لا تعرف الحدود .

فإذا كان بعض الناس يطمع في الوزارة أو الملك والسلطان ، فإن بعض الناس يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيعتقد في نفسه الولاية أو النبوة أو الألوهية . ألم يقل فرعون في قديم الزمان : « أنا ربكم الأعلى » .

وفي الشرق كثير من المجاذيب يقولون عن أنفسهم إنهم المهدي المنتظر ، وإنهم سيدنا عيسى نزل إلى الأرض بعد أن رفع إلى السماء . والغريب أنهم يجدون من يصدقهم ، ويقبل أيديهم ويعتقد فيهم الولاية والبركة ، وهم أنفسهم يجدون لذة كبيرة في هذه الزعامة الدينية ، لأنها تشيع في النفس نزعة السيطرة من أيسر سبيل . هذا في الواقع هو السر في أن كثيرا من الناس يتجهون إلى المناصب الدينية وإلى التعليم .

وليس هناك فرق كبير بين رجل الدين والمعلم ، فكلاهما يلتقى مواعظه على الطلاب الذين يؤمنون بكلامهما . ولذة المعلم أو رجل الدين هي السيطرة على جماعة من الاتباع أو التلاميذ ، الذين ينقادون إلى رأى المعلم فى استسلام وخضوع .

وهناك طائفة أخرى تحقق طموحها عن طريق المال لا عن طريق المنزلة والمراكز وهؤلاء يرون أن المال قوة عظيمة بها نحصل على كل ما نريد فى الحياة ، إذ نشترى الطعام والملابس ، ونقتنى الدور والقصور والعربات . بل نستطيع بالمال أن نشترى المراكز نفسها . ولا يزال الشرق يدين بالآلقاب ، وهى تشتري لمن يدفع ثمنها . وكثير من الأغنياء الذين وصلوا إلى الثروة عن طريق التجارة أو الزراعة ، وكانوا قبل ذلك من عباد الله الفقراء ، يتبرعون ببضعة آلاف من الجنيهات لبناء مستشفى أو جامع أو مدرسة ، فتمنحهم الدولة نظير ذلك لقب البكوية أو الباشوية . هؤلاء قوم ينزلون عن المال فى سبيل الشهرة . ولكن غيرهم لا يؤمن بالآلقاب ، ولا يعتقد فى المناصب الرسمية الاجتماعية ، ولا يعبد المال وحده ، ولذلك لا يسعى إلى لقب ، ولا يطلب سلطانا ، وإنما يقتنى العقار ، بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيخنى ثروته ولا يستثمرها فى أرض زراعية أو دور للسكنى ، بل فى أوراق مالية أو فى جواهر ثمينة .

ولكن المال لا يلبس ولا يؤكل ، وإنما هو السبيل إلى الحصول على الرغبات الدنيوية ، تلك التى تحقق المنزلة الاجتماعية وترضى الطموح . وقد أصبحت المنزلة الاجتماعية ، أو قل إنها كانت وسوف تكون على الدوام فى مظهر الحياة : بيت عظيم يشبه القصور ، وعربات مذهبة ذات جياد أصيلة ، أو سيارات فاخرة ، وخدم وحشم وبذخ فى استقبال الناس ، وولائم تنفق فيها الأموال بغير حساب .

هذا هو الهدف الأسمى الذى يرمى إليه من يطمح إلى المال ، إنه يسعى إليه ويجمعه ويلبغ فى جمعه ويكنزه لغرض واحد ، هو الانفاق منه على مباهجه ومسراته وتحقيق أطماعه وأغراضه . ولكن كثير من الناس ينتهى أمرهم إلى نسيان الغرض الحقيقى من المال ، وأنه سبيل إلى غاية ، فإذا بهم يتمسكون بهذه الوسيلة ويتخذونها

غاية في نفسها ، ويجمعون المال من أجل المال ، ويعيدون الثروة لذاتها . وهذا ضرب من ضروب الانحراف وانشدوذ ، والله في خلقه شئون .

وسواء أحققت طموحك في الحياة عن طريق منزلة اجتماعية أم عن طريق المال فليس من الضروري أن تصل وتبلغ المرام ، وعندئذ تلجأ إلى طريق آخر ، هو طريق الأوهام والأحلام . ونظرية فرويد معروفة ، ونحن نوافق عليها ، هي أن الحلم تحقيق رغبة لم يستطيع صاحبها أن يحققها في اليقظة . بل إن كثيراً من الناس يتركون أنفسهم للخىالات وهم أيقاظ ، وذلك ما نسميه بأحلام اليقظة أو شرود الذهن ، فيتصورون أنهم أصبحوا ملوكاً ووزراء وحكاماً ، وأنهم يسكنون القصور ويتمتعون بما يشتهون . وهذا كله دليل العجز والقصور .

وقد يذهب العجز بالإنسان إلى حد المرض ، نغنى المرض الوهمي ، أو ادعاء المرض ، حتى يبرر فشله في آماله التي تحطمت وتمددت وذهبت أدراج الرياح ، فإذا به يرقد ولا يستطيع القيام من السرير أو المشي أو الكلام أو القيام بعمل من الأعمال . يحكى أدلر العالم النفساني قصة ذلك الشاب الذي بلغ من العمر الخامسة والعشرين وكان عليه أن يتقدم إلى امتحان الليسانس ، ويبدو أن شيئاً من الخوف دخل إلى قلبه ، فأوحى إلى نفسه أنه مريض ، ووقد فعلاً ، ولم يدخل الامتحان ، وبذلك ضاعت عليه الفرصة في النجاح .

ونحن إذا نظرنا إلى الطبيعة البشرية نستطلع أسرار النفس لرأينا عجباً . رأينا أن كثيراً من العجزة أحماء ، وإنما يدعون المرض وهم لا يشعرون . ولذلك كثرت الأمراض النفسية في العصر الحاضر ، أو قل إنها كانت موجودة مادام البشر بهذه الفطرة الطامحة ، وما دام تحقيق الآمال متوقفاً على ظروف خارجية ليس في وسع المرء تدليلها .

ولكن الجديد في العصر الحاضر هو تقدم العلوم النفسانية التي تكشف الطبيعة الإنسانية ، وتعلم السر في الصحة والمرض والواقع والخيال .

فجدير بنا أن نفهم الدنيا على حقيقتها ، وألا نسرف في الطموح فنهوى
أو ننصرف إلى الأوهام ونعيش في دنيا الأحلام فتضيع الفرصة ، ولا يلومن أحد
إلا نفسه .

الغرور

حدث ستاندال الروائي الفرنسي المشهور في كتابه عن الحب ، فقال إنه على
أربعة أنواع ، الحب الأفلاطوني ، وحب الذوق ، والحب الجنسي ، وأخيراً حب
الغرور . ويعني أن ننظر في هذا النوع الأخير الذي تحدث عنه ستاندال ، فهو
يصفه بقوله إنه ذلك الضرب من الحب السائد في فرنسا في عصره ، أى في القرن
الماضى ، حيث ينزع أغلب الرجال إلى اتخاذ امرأة عصرية خليله ، كما يحوز للمرء
حصاناً أو كلباً ، فهو شيء مكمل للترف ليرضى نفسه ، ويزهو على الناس ويفعل
كما يفعلون .

وكما أن كل إنسان طامح كذلك كل إنسان مغرور . لأن الطموح والغرور
متصلان بحب التفوق والرياسة ، وحب الرياسة داء لا دواء له ، وقل ما يجد الراضين
بالقسم ، كما قال الشاعر القديم . والفرق بين الطموح والغرور أو الزهو والخيلاء ،
أن الطموح نزوع النفس إلى شيء آخر كالجد أو المال . والغرور تعلق النفس بالنفس
أو حب الذات ، لأنها هي التي تعمل وتخلق . وكل عامل يطلب الثناء على عمله لأن
لذة الحياة في الخلق والابتكار والإبداع ، وأنت لا ترضى بحكم نفسك على نفسك ،
بل تطالب حكم الناس عليك ، وماذا يظن الناس فيك .

كل منا إذن فيه من الغرور نصيب ، لأن الطبيعة التي ركبنا فيها جعلتنا نحب
أنفسنا . إلا أن هذا الغرور أو الزهو يبدو في ألوان مختلفات . قد يكون معتدلاً
وقد يكون متطرفاً . والخطر كل الخطر في الإسراف في الغرور والتطرف في الزهو
والإفراط في العجب والخيلاء .

أول هذه الآثار عناية المرء بمظاهر الأشياء دون الحقائق واللباب . ولذلك ينصرف المزهو بنفسه إلى أعمال الزينة فيتأنق في ملبسه أناقة تخرجه عن حد الاعتدال . وزهو النساء في هذه الناحية أشد . وحب الغرور الذي حدثنا عنه ستندال هو من هذا القبيل ، لأن الرجل يتخذ حبيبته لا للحاجة ولا للحب الصحيح ، بل للزينة ، حتى يقال إنه قد اتخذ صاحبة كغيره من أهل طبقته . وهذه الظاهرة أكثر شيوعا في الجماعات التي تبلغ درجة عظيمة من الحضارة ، ثم تتأخر كما هو الحال في الشرق في الوقت الحاضر . فنحن لا نزال نتمسك بالقشور والمظاهر تشبها بأهل الكمال . وهذه الألقاب والولائم والملابس والتحيات والسلامات . كل أولئك من مظاهر الزهو ، والشعور بالنقص . وكلاهما شعب بالنهوض نار على هذه المظاهر الفارغة ، كما فعلت تركيا على يد مصطفى كمال حتى يتفرغ الشعب للجوهر وينصرف عن القشور .

ونحن نرى أن الشرق أخذ في هذا الطريق وهو دليل النهوض الحقيقي . ومن آثار الغرور انعطاف المرء على نفسه يفكر فيها ، كأن الدنيا لا يعيش فيها إلا هو . ولذلك يطلب رأى الناس فيه ، ويسر للمديح .

ومن آثاره أيضا عدم إدراك العلاقات بين الناس على حقيقتها ، فيغفل عن الواجبات فهذا صديقك اليوم ، ثم أصبح في الغد صاحب مركز ممتاز . قل إنه أصبح وزيرا ، فهل تطلب منه أن يكون معك كما كان بالأمس ؟ ألا تدرك أن عليه مسئوليات وواجبات ؟ فإذا ذهبت إليه أطرق بابه ووجدته مشغولا بشئون الوزارة ، ولم يستطع أن يستقبلك ، غضبت وانهمته بالعقوق . وكان ينبغي أن تهتم نفسك بجهل طبائع الأشياء ، ونسيان الواجبات ، وعدم إدراك حقوق الناس على الوجه الصحيح .

ولكنه الغرور الذي يجعل الإنسان يعتقد في نفسه أنه أعلى الناس قدرا ، وأرفعهم منزلة ، فينسى قيمة نفسه الحققة .

وإذا كان هناك فريق من الناس يُرضى ما في نفسه من زهو وغرور وخيلاء بالزينة والملبس الأنيق والترتيب الدقيق ، فهناك فريق آخر يذهب إلى العكس من ذلك فيهمل نفسه إهمالا شديدا ، حتى ليلبس الملابس المرقعة والأسمال البالية . وليس هذا دليل التواضع وقتل داء الغرور ، ولكنها طريقة يلجأ إليها بعض الناس بغير شعور إلى إرضاء غرورهم من هذا السبيل .

يحكى في ذلك أن سقراط الفيلسوف رأى شابا يرتقى المنبر في أثواب بالية ممزقة فقال له : أيها الشاب الأثني ، إن غرورك ليظهر من خلال كل خرق من خروق ثوبك ، ونحن نرى كثيرا من الذين يزعمون أنفسهم من أهل الفن يتركون شعورهم أشعث وملا بسهم متهدلة ، حتى يقال عنهم إنهم بلغوا من الفن منزلة رفيعة .

والزهو أو الغرور يبدو في الأطفال بأشكال مختلفة . فالطفل يحب أن يؤكد وجود نفسه ، وأن يلفت النظر إليه ، بالصياح واللعب في الأشياء التي تحدث أصواتا مدوية . كأنه يقول : نحن هنا ، وإذا رأى غيره من الأطفال أراد إخضاعهم بالقوة والعنف ، فلا ينفك يضربهم ، بل كثيرا ما يضرب الطفل الحيوان ويعذبه ليؤكد وجود نفسه . وكثيرا ما تصحب هذه العادات التي تتأصل في سن الطفولة الناس حتى يبلغوا مبلغ الرجولة . ولكن المجتمع له تقاليد وآداب يحب اتباعها ، منها حلاوة الإنسان ، وحسن استقبال الصديق ، والود والإخلاص والوفاء ، مما يبدو في السؤال عن الأحوال والاهتمام بشئون الغير . ومع ذلك فهذا كله طلاء ظاهر أو نفاق اجتماعي يخفى وراءه حقيقة الغرور .

ذلك أن من شأن المغرورين بأنفسهم أن يضعوا ستارا لا يستشف الناس منه حقيقة أمرهم .

لذلك لا يجب أن ننخدع في مظاهر الود والصداقة والرغبة الطيبة التي يبديها بعض الناس ، فقد يكون كل ذلك خداعا ، وقد تعجب عند ما تظهر نفسه على حقيقة ما فيها من شر وعدوان .

وعندئذ نعتقد أنه يحمل نفسين أو أنه مركب من طبيعتين ، إحداهما لينة خيرة مهلة ، والأخرى شريرة تميل إلى العدوان . الحقيقة أن الإنسان لا يحمل بين جنبيه إلا نفساً واحدة ، ولكنها متعددة الجوانب ، أولها ظاهر وباطن . والحياة الاجتماعية تعنى على النفوس مظاهر تخفى حقيقتها . ونحن هنا نحاول أن نكشف عن أسرار النفس ، وننفذ منها إلى الأغوار العميقة والبواطن الصحيحة . إذن فاعلم أن النفس واحدة ، ولكنها نجب الخداع ، فتلتوى إذا لم تستطع تحقيق أغراضها عن الطريق المستقيم .

ومن مظاهر الظهور التمسك بالحسب والنسب ، مع أننا نعيش في عصر الديمقراطية . ومع ذلك نسمع بين حين وآخر عن نساء تزوجن من أمير أو بارون أو كونت لا لسبب إلا لاكتساب اللقب إرضاء لأنفسهن المملوءة بالزهو . وهذا كثير الحصول في أمريكا وهي بلاد الأعمال بوجه خاص . وكثير من الأمور التي أخفى عليها الدهر في أوروبا أو في الشرق تتمسك بحسبها وتقاليدها ولا تزال تعيش على الماضي . وكان التمسك بالحسب في الزمن القديم شديداً ، وكثيراً ما التمس العظماء من الرجال الانتساب إلى الرسول عليه السلام ليزدادوا شرفاً . ويروى في ذلك أن المعز لدين الله الفاطمي بعد أن فتح مصر وبني القاهرة العزية ، ورأى أن الشك قد سرى بين الناس عن حقيقة نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ، جمع مجلساً يشهد فيه هذا النسب ، وأخرج سيفه من غمده باليمين ، ونثر الذهب بالشمال ، وقال : هذا حسبي وهذا نسي . فإن صحت هذه القصة كانت دليلاً على استيلاء الزهو على نفس المعز حتى ليجتاح إلى النسب إلى بيت الرسول مع أنه وصل إلى ملك شمال أفريقيا كلها .

ونحن نرى أن التمسك بالنسب أثر من آثار التربية منذ الصغر ، فالآباء يعلمون أبناءهم الترفع والتمسك بالأصل إذا كانت الأسرة ذات منزلة اجتماعية مرتفعة عن غيرها ، فينشأ الطفل على حب الزهو منذ الطفولة وتصحبه هذه النزعة حتى الشباب والرجولة .

الواقع أننا في كثير من تصرفاتنا نعود إلى عهد الطفولة ، وتتأثر بالطريقة التي طبعنا عليها الآباء ، فإن لم يكن الأب ذا مال أو منزلة أو حتى إلى أبنائه أن يتطلعوإلى المراكز السامية ، بل كثيراً ما يتغلى الآباء عن أموالهم في سبيل راحة أبنائهم حتى يحتلوا المكانة التي لم يستطيعوها هم تحقيقها . ولكن ما كل ما يتعنى المرء يدركه ، فيشب الطفل وفي نفسه حب الزهو والغرور ، ولا يستطيع إدراك المنزلة الحقيقية التي يصبو إليها ، وعندئذ تحدث أحد أمور ثلاثة : الأول العزلة والانطواء على النفس والابتعاد عن المجتمع والسخط عليه ، مع أن تحقيق المناصب الكبرى لا يتم إلا بالنزول إلى الميدان الاجتماعي وعقد الصلات بالناس . وقد تبلغ الدولة بالمغرور حد الترهيب والمعيشة في دير يغلق فيه أبوابه على نفسه فلا يرى أحداً .

الامر الثاني شكوى الزمان ، وإنزال السخط على الدهر الذي لم يعمل على إرضاء هذا الساخط . ويبدو أننا نعيش في عصر الغرور . لأنك لا تسأل أحداً إلا وجدته متبرماً ما ساء خطأ لا يعجبه ما هو فيه من مركز أو ما يحصل عليه من مال . وكان يلغى على هؤلاء الساخطين أن يسألوا أنفسهم ماذا قدموا من عمل يستوجب وفرة المال أو تقدم المركز أو حسن التقدير . وإنى لأعاني في داري من الخدم هذا الداء . وأظن أن معظم الناس يعانون مثل ما أعاني . فهذه خادمة لا تعرف في تدبير المنزل شيئاً ، وإذا كانت تعرف فإنها لا تريد أن تعمل ، وإنما تريد أن تذهب إلى دور الخيالة وإلى الحدائق للنزهة والترويح ، ثم تطلب أجراً غالياً إلى جانب أنها تأكل وتشرب وتلبس وتنام بدون أجر في البيت . ولكنه غرور النفس الذي أخذ يعم سائر الناس ، فيقدرون أنفسهم أكثر من حقيقتها بغير عمل جدى يقومون به . والامر الثالث في إرضاء الغرور ، نقد أعمال الناس بالحق والباطل والسخرية من آثارهم ، وتوبيخ من اتصل به في عمل ولومه . والنقد مطلوب على كل حال ، لأنه يدل على التمييز بين الحسن والقبيح ، ولكن لا يلغى أن يتصدى للنقد والتجريح إلا من كان عالماً عارفاً .

وقد شاع في العصر الحاضر ظاهرة غريبة هي نقد السياسة والمجتمع من كل

إنسان مع أن قوانين الجماعات معقدة أشد التعقيد ، حتى لقد عجز الفلاسفة عن بيانها وتفسيرها . وعجز سقراط الفيلسوف على علو قدره عن فهمها وإدراك لب المجتمع ، وهو العدالة الإنسانية ، فقال عند موته : « إني أعرف شيئا واحدا ، وهو أني لا أعرف شيئا » ، فإذا كان هذا هو حال شيخ الفلاسفة من اعتراف بالعجز ، فكيف يسوع أنصاف المتعلمين لأنفسهم أن يحترءوا على كل شيء بالنقد والتجريح كأنهم أوتوا من العلم النهاية ، وبلغوا منه الغاية . ولسكنها النفس التي طبعت على الزهو والغرور والخيلاء ، وعلى أنها تعلم كل شيء ، فلما لم تستطع عملا إيجابيا مفيدا اتجهت هذه الوجهة السلبية الهدامة ، والهدم أيسر من البناء ، والنقد والتجريح أيسر من الخلق والابتكار . وهذا كله من آثار الغرور .

فاعرف هذا السر العميق ، وأنزع من نفسك طلاء الزهو والخيلاء ، وانصرف إلى العمل المثمر والتشييد والبناء .

الحسد

الحسد ، أعوذ بالله من شره ، فقد أمرنا الله تعالى في كتابه أن نستعيز من شر الحساد ، فقال تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد » ، وأكبر الفتن أن البشر ماداموا بشرًا ركبت فيهم الطبايع الإنسانية فسوف يدوم فيهم الحسد ، كما يجري في نفوسهم الطمع والطموح والفتنة والغرور ، والتسلط والعدوان ، والسيطرة والنفوذ والسلطان . ذلك أن طبيعة الإنسان متصلة بالنزوع إلى القوة والسيطرة والتفوق ، بل هي طبيعة الحياة التي يتغلب فيها الأقوى ، كما هو مشاهد في الصراع بين الحيوانات فيتغلب القوى على الضعيف .

والفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل والشعور ، وإدراك الزمان ، ومعرفة الماضي والحاضر والمستقبل . أما الحيوان فطريقه إلى الغلبة هو القوة البدنية والصراع الوقتي ، أما الإنسان فإنه يرسم الطريق الذي يسير فيه حتى يصل إلى المراتب العالية

أو المال والنفوذ . وقد يكون ذلك بعد سنوات طويلة من الدرس والتحصيل ،
والدأب والكفاح والمغامرة والإقدام ، حتى ينتهي إلى النصر والنجاح .
ولا تحسبن أنك وحدك الذي يسلك سبيل الرقي والتقدم حتى تبلغ ما تريد من
قوة ونفوذ وسلطان ، فإلى جانبك آلاف وآلاف يرتقون نفس السبيل ، ويسلكون
نفس الطريق وكلهم طامح إلى منزلة ، طامع في مال . والطريق كما ذكرنا طويل ،
والمستقبل مجهول ، فإذا بك ترى غيرك قد فاز بالمركز ، أو سبق إلى الحصول على
الثروة ، أو وفق في ابتكار أثر من الآثار العلمية والأدبية .

وهنا يدخل الحسد في قلوب المتخلفين . حكي الجاحظ في رسالة العداوة
والحسد قال : إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن ، في الدين والفقه والرسائل
والسير والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ،
فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون
براعته ونصاعته . فهذا كلام الجاحظ ، وهو إمام الكتاب في أهل عصره ، وحسد
له ، ونيلهم من كتبه . فكان حسدهم أفضل دعاية وأعظم عامل على نشر رسائله .
كما قال الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وهناك من الناس من يجزعون من الحسد فرقا ، ويؤمنون بتأثير الحساد ، وهو
الذي يعبر عنه العامة بالعين . ولقد شاع منذ الزمن القديم أنواع من التعاويذ تقي
الحسد وتمنع شر العين . ولكل أمة تقاليدھا في ذلك بما هو مشهور ومعروف .

ففي مصر تعود الفلاحات أبناءهن بفصوص من الزبرجد الأخضر تعلق على
الجباه في مكان ظاهر . ويشتهر بعض الناس بتنفيذ حسدهم ، فما يرى أحدهم بقرة
سمينة ويقع عليها نظره حتى تمرض وتموت ولا ينفع فيها علاج .

وقد اختلف العلماء من قديم في تفسير هذا التأثير ، أيفلح عن بعد أم لا يفلح ،
أنصيب العين أم لا تصيب ؟ وكيف تصيب عين الحسود وليس هناك علة ظاهرة

أو سبب مؤثر ؟ . قال المحققون إن الحسد لا يشمر إلا إذا أقدم الحاسد على عمل إيجابي يضر بالمحسود ويؤذيه ، فيمشى بالوقية بينه وبين الناس ، أو يطلق فيه لسانه بالنقد أو التقريع وتشويه السمعة ، أو يعتدى عليه بالذات أو بالواسطة . أما للتأثير عن بعد بغير واسطة فقد أنكر ذلك كثير من العلماء .

ومهما يكن من شيء فالأفضل لنا أن نتق شر الحسد والحاسدين . ولما كان الحاسد لا يحسد من هو أقل منه منزلة ، لأن السيد لا يحسد الخادم ، والغنى لا يحسد الفقير ، بل العكس هو الذى يحصل ، فالضعيف هو الذى يحسد القوي ، فيبغى على صاحب الأمر إذا تربع على عرش المجتمع ، وأحس بسلطان على فئة من الناس أن يحسن معاملتهم ، وأن يخفى بأسه وقوته ، ويشعرهم بالأخوة ، فلا يجرح شعورهم وهذا هو الطريق إلى إيقاف الحسد وصدده .

واعلم أن الناس تميل دائما إلى معارضة صاحب السلطة . وهذا قانون طبيعي لا سبيل إلى دفعه . لذلك كانت مهمة الأمر أشق من مهمة المأمورين ، فالخدم يخرجون عن طاعة أسيادهم ، والطلبة يشورون على أساتذتهم ، والعمال على صاحب العمل ، لأن السيد فرد يواجه الجماعة ، وهؤلاء يحسدونه لمنزلته . فإذا أضاف إلى ذلك الغطرسة والجفاء والتكبر اشتعلت نار الحسد وانقلبت بغضا . ولا سبيل إلى رفع الحسد من القلوب إلا بالمساواة التامة بين جميع الأفراد ، وهذا مطلب عسير التحقيق ، على الرغم من أننا نعيش كما يقال في عصر الحرية والمساواة والديمقراطية . كل ما وصلت إليه الإنسانية حتى اليوم هو تقريب المسافة بين الأفراد وفرض الضرائب على الأغنياء والإنفاق على الفقراء . بل لو اهتدى الإنسان إلى طريقة يستوى فيها الناس جميعا من حيث الثروة ، فيبقى بعد ذلك أن منهم حاكما ومحكوما ، وقويا وضعيفا ، وجيلا وقبيحا . وأظن أن الجمال والقبح من المواهب الطبيعية التي لا حيلة للإنسان فيها .

وجميع الأديان والشرائع والأخلاق تنهى عن الحسد ، ذلك أن الإنسانية لا تزال في فجرها ، ولا تزال طبيعتها طبيعة الطفولة . ولكن المشاهد أنه كلما زادت

القيود الاجتماعية زاد شعور الناس بالحسد ، وكلما قلت القيود وشعر الفرد بالحرية أمكنه أن ينفس عن شعوره وأن يصل إلى أغراضه .

وكما يحسد الفرد الفرد يحسد الشعب الشعب . فهناك شعوب أقوى من شعوب ودول أقوى من دول . وحسد الأمم يؤدي إلى الحروب الطاحنة ، وليس ما نراه الآن من صراع قام بين ألمانيا وروسيا وإنجلترا وأمريكا إلا نتيجة حسد ألمانيا للدول الأخرى . وقد انتهت بالحرب الدامية التي أدت إلى هزيمة الشعب الألماني . وسر الحروب هو حسد الدول بعضها لبعضها الآخر .

فهل من سبيل إلى القضاء على الحسد حتى نقضى على الحروب بين الأمم ، والمشاحنات بين الأفراد .

أما بالنسبة إلى الأفراد فالسبيل إلى ذلك أن نكل إلى كل شخص عملا يلائمه ويشعر فيه بقيمته ومسئوليته ، ويحس بمركزه وسلطانه ، فترضى نفسه . أعندك في بيتك خادم . . . دعه يشعر أن البيت بيته ، وأن يشعر بعد ذلك بحسد سيده . أما الشعوب فأمرها أشق ، ولا يزالون يعالجون أسباب الحروب فلم يهتدوا إلى سبيل . وقد عادت أنغام الحرب تتردد ، ولما تلتئم الجراح من الحرب السابقة . وعندنا أنه لو أفسح المجال أمام كل شعب نحو التقدم والرق فلا نحسب أن القلوب تطوى على البغض والحسد كما هو اليوم .

ومن جهة أخرى يجب على الأمم أن تمد يد المساعدة للأمم الأخرى في نكبتها التي لا حيلة لها فيها ، فإن الخير من أعظم العوامل في دفع الحسد . وكذلك حال الجار الغنى الذي يقدم المعونة لجاره الفقير في ساعة محنته وشدة . وفي ذلك قال الشاعر :
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإحسان إنسان

ولكن الغريب في طبائع البشر أن الذين يتمكن الحسد من قلوبهم لا يفيد في اقتلاعه إحسان أو معروفا . قد يخف الحسد ، ولكنه لا يزول تماماً .

ثم ينطوى المرء على نفسه يأكله الحسد ويفكر في الانتقام ، ولذلك لا ينصرف إلى أداء عمل ينفع به نفسه أو ينفع به المجتمع الذي يعيش فيه . كل ما يطلبه أن يأخذ ما في يد غيره ، وأن يتمتع بالنعم التي ينعم بها الناس . فإذا لم يحصل عليها عمل على إفسادها . وهذا كثيراً ما يقع في الريف المصرى حيث يقطع الزرع أو تسمم الماشية ، لا انتقاماً من صاحبها أو رداً على اعتداء قام به ، بل حسداً له . وقد تعجب هل يقدم أحد على فعل الشر دون سبب ، كالغراب الذى يخطف الصابونة كما يُقال في الأمثال العامة ، فهذا هو شأن الحاسد إذا أقدم على إفساد حاجات الناس ، لا ترى علة ظاهرة تدفعه إلى ذلك ، ولكن العلة في باطن النفس وهى الحسد . ثم إن المصائب إذا حلت بالناس من شأنها أن تثير الشفقة والعطف والمبادرة إلى معاونتهم والمشاركة في آلامهم . ولكن قلب الحاسد لا يهتز للألم ، ولا يرق للبصية ، بل على العكس من ذلك يسر لما يحل بالناس من متاعب ، وبفرح لآلامهم ومصائبهم ، والعياذ بالله .

ويظهر الحسد من أمور ثلاثة : المال والسلطان والعلم . والمقصود بالمال السعة في الرزق ، وبالسلطان المنزلة بين الناس ، وبالعلم كسب المعرفة ، ثم الكتابة والتأليف . والحسد بين العلماء أعنف وأقوى ، لأنهم يصورون الأحوال التى تدور فى نفوسهم ويسجلونها فى الكتب والرسائل ، فتشتهر فى الناس وتسير مع الزمان . ونحن نرى أن الحسد واحد سواء أكان بسبب المال أم المنزلة أم العلم ، ولكن الجاهل الذى يحسد غيره لماله لا يستطيع التعبير عما فى نفسه بالكلام ، فيظهر ذلك فى أمارات وجهه أو فى سلوكه . وليس من الضروري أن يكون المال نقداً ، فنحن نعبر بالمال عن أى ثروة أو نعمة يتمتع بها الإنسان من طعام وشراب ومسكن وملبس وما إلى ذلك .

وقد فطن الناس من قديم الزمان إلى تأثير الحسد فى زوال النعمة . فأشركوا الجيران فى التمتع بها اتقاء لشر الحسد . ومن الظواهر الجارية فى أغلب الشعوب أن يتخفى الجائع حين يأكل ويستر نفسه ولا يأكل على الملأ علانية . وهذا تنصح

الأخلاق العملية أو آداب السلوك . والسر في ذلك خشية الأكل عين الحاسد . ومن الأغنياء من يفعل ذلك ، فإذا أكل علانية تناول طعام الفقراء حتى لا يقال عنه من الأغنياء . ومنهم من يظهر في ملابس متواضعة رقيقة ، وليس سبب ذلك البخل في جميع الأحوال ، بل قد يكون اتقاء للحسد . وقد سمعنا عن قوم من الأثرياء يملكون الألوف من الأموال ، ويأبون ركوب عربة أو دابة ، ويقطعون المسافات الطويلة على الأقدام ، ويلبسون الأحذية البالية ، فإذا سئلوا في ذلك أنكروا ما عندهم من أموال . ولذلك يفضل الأغنياء أن يستتروا أنفسهم وأموالهم حتى لا يطلع عليها أحد .

ونستطيع أن نضيف ونحن مطمئنون إلى أسباب الحسد ، غير المال والسلطان والعلم ، المرأة . فهي على رأى فرويد الأصل في كل سلوك . وهذا صحيح إلى حد كبير . وقدما حسد قاييل هايل من ولد آدم لأن زوجة أحدهما أجمل من الأخرى . ولا يزال الناس حتى اليوم يحسدون الرجل إذا وفق إلى الزواج من امرأة جميلة . والذي ننصح به ، وقد علمت أن الحسد داء ليس له دواء ، أن نستخف بالحساد ولا نحفل بهم وأن تتمثل بشعر نصر بن سيار .

إني نشأت وحسادى ذوو عدد
فإذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدوني على ماقد بنيت لهم
فذل حسن بلانى جر لى الحسدا

المال

المال محرك بالغ الأهمية في حياة الإنسان ، فلا يكاد يخطو أحدنا خطوة إلا برنين الذهب . ونحن لانجد المال محركا للإنسان لحسب ودافعا له فقط ، بل يجتذبه كذلك كأنه المغناطيس الذى يجتذب الحديد ، أو السحر الذى يؤثر في القلوب

والعقول . وفي هذا المعنى قال القدماء « رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب ، وقالوا « رأيت الناس قد انفضوا إلى من عنده فضة ، وقالوا « رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال ، وقال أمير الشعراء شوقي بك

والمال مذ كان تمثال يؤم به

والناس مذ خلقوا عباد تمثال

والقدماء في ذلك على صواب إذ لا ريب أن المال ياعب في حياة كل فرد دورا عظيما ، مع أنه لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يسد حاجة من هذه الحاجات الفطرية الضرورية التي يحتاج إليها الإنسان في حفظ كيانه واستقامة معاشه . كيف إذن تدخل المال في الحياة الإنسانية هذا التدخل ، بل تغفل هذا التغفل . وهذا هو السر الذي يحتاج منا إلى بيان .

حقا لا يؤكل المال ولا يشرب ولا يلبس ، ولا يسد حاجة من هذه الحاجات الفطرية التي يطلبها الإنسان ، ولكنه أصبح الوسيلة لقضاء الحاجات ، أو لشراء هذه المطالب الضرورية كالأطعام والشراب ، والكساء والدواء . وكلما تقدم المجتمع في سلم الحضارة ازداد تعقيدا وتنوعت المطالب . أما البداوة فإنها تمتاز بالبساطة حتى ليستطيع الفرد الواحد ، أو الأسرة القليلة العدد القيام بنسج الملابس وبناء البيوت وتوفير الطعام . ولكننا مع الحضارة الحديثة نسكن في دور يتعاون في بنائها آلاف العمال : هذا يصنع الحديد ، وذاك يصنع الخشب ، وهذا يقوم بالظلام وذاك يعنى بالزخرفة ، ومال ذلك مما لا يحتاج منا إلى تعريف وبيان . وقد أصبحت كثير من الكماليات كأنها ضروريات لا تستقيم المعيشة إلا بها . فأنت تطلب التليفون لسهولة الاتصال ، والسيارة لسرعة الانتقال ، ولسكنك لا تستطيع أن تصنع التليفون أو السيارة لنفسك كما يغزل البدوي ملابسه من صوف الأغنام . ولا بد لك من هذه الأداة الضرورية أو العصا السحرية التي تجلب لك ماتشهمى الأتقى وتلذ الأعين ، نعى المال .

والكماليات التي تطلبها المرأة أكثر مما يطلبه الرجل كالحلى والملايس ، وهي كلها مما تشتري بالمال ، الذي أصبح الوسيلة للتعامل ، فهو وسيط أو بديل عن هذه الحاجات المختلفة ، وهو رمز أو اصطلاح ليس له في ذاته قيمة بعد أن استبدلت الذهب والفضة بالورق . وسواء أكان المال ذهباً أم ورقاً فإن القيمة الحقيقية في الأشياء التي يمكن الحصول عليها بهذا الذهب أو الورق ، فإذا عزت الحاجات نزات قيمة الذهب وأصبح المال لا يساوى شيئاً ، ويتضح ذلك في أيام الحروب والمجاعات . وقد قرأنا في التاريخ عن المجاعة الشنيعة التي حدثت في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي وكيف كان الواحد يعرض مئات من الجنيهات ليحصل على رغيف من الخبز فلا يجده . أذكر أنه بعد الحرب الكبرى الماضية هبطت قيمة المارك الألماني هبوطاً عظيماً ، واشترى كثير من المصريين عملتهم في هبوطها طمعاً في ارتفاعها بعد ذلك فضاع عليهم مадفعوه من عملة ، وأصبح المارك لا يساوى شيئاً لأنه لا قيمة له .

وهذه ظروف طارئة لا يقاس عليها في كل زمان : أما في الأحوال العادية فالمال هو السبيل إلى الحصول على الحاجات المختلفة ، ولذلك كانت له هذه الميزة وهذا السلطان . ولا تتضح لك هذه الحقيقة وتبرز إلى العيان إلا إذا حرمت منه وأصبحت يدك صفراً من النقود . كنت على سفر في إيطاليا قبل الحرب ، أعني أيام الرخاء وكانت معي عملة إيطالية قدّرت إنفاقها في أيام معدودة ، ولكنني أخطأت في الحساب وظهر لي أن مامعي لن يتكفي المدة الباقية لإقامتي في مدينة ميلانو . واضطرت إلى الامتناع عن مطالب كثيرة حتى لا ينكشف أمرى ، من ذلك أني أقلعت عن التدخين أربعة أيام متواليات .

فلما رأى الإنسان أن المال أداة لاغنى عنها في الحصول على شتى الحاجات ، شرع يجمعه ويخزنه إلى وقت الضرورة والاحتياج . وليس الاختزان في ذاته باطلاً ، بل هو فطرى في الحيوان ، وهذا ما يعرف بفريزة الجمع والاقتناء . فالتحل يخزن العسل في الخلايا التي يبنيها صيغاً حتى يتغذى منه في الشتاء ، وكذلك يفعل النمل فإذا اقتنى الإنسان فإنه لا يفعل بدعة ، بل يتصرف كما يتصرف الحيوان الذي

أهمته الطبيعة حفظا للحياة . ولكننا نفهم أن يخزن الفلاح القمح ليأكله ، وكذلك اللحم يقدده والفاكهة يحفظها لأنها بما يؤكل ويسد حاجة الطعام . أما المال فإنه يخزن ولا يؤكل ، وكثيرا ما يلجأ جامع المال أنه وسيلة إلى تحقيق الأغراض ، فيجمعه لذاته ، ويصبح اقتناء المال غرضا في نفسه لا وسيلة للحصول على الحاجات . والاصل في الحياة تحقيق الأمن ، حتى لقد برز هذا الغرض في العصر الحاضر بشكل واضح بعد أن رأى الإنسان كيف تهلك الحرب الحديثة الحرث والتملح وتبيد الحيوان والإنسان مع اختراع هذا السلاح الفتاك وهو القنبلة الذرية . فقالت الشعوب زيد الأمن ، وأنشأت الدول مجلس الأمن لمنع الحروب . والفرد في حاجة إلى تأمين نفسه من المخاطر التي تهدد حياته مثل حاجة الشعوب والدول . وحياة الفرد معرضة للخطر من أمور كثيرة كاعتداء اللصوص وفتك القتل والمجرمين والسفاكين للدماء ، وتعرض الجسم للأوبئة والأمراض المهلكة للنفوس الفتاكة بالآبدان ، ولا بد لنا أن ندفع عنا هذه المهلكات . والاصل في ذلك أن يدافع المرء عن نفسه بقوة ساعده مع الإقدام والشجاعة ، ولكنه رأى الأمن كذلك يشتري بالمال ، فهو يستطيع أن يستأجر الخفر ويقيم الحرس ، وكذلك تفعل بعض الدول في التاريخ القديم والحديث من شراء الجند لتحقيق الأمن ، والجند المرتزقة مشهورون في التاريخ .

بل الحياة الجنسية نفسها التي يزعم فرويد أنها الدافع الأول في سلوك الإنسان تُشتري بالمال . فالمرأة لا تُقبل على الرجل ، والرجل لا يقبل على المرأة نعى أن يشتهيها ويحبها وينظر إليها نظرة الشوق والطلب إلا وهو يُنزل في حسابه قيمة هذه المرأة من حيث المال وكم تساوى . فإن كنت في ريب مما أحدثك عنه ، فانظر إلى نفسك إذا كنت متزوجا ماذا فعلت عند الزواج ، وكيف طلبت المرأة التي تزوجتها وهل كان شرط المال مما تعمل له حسابا أولا . وكذلك الفتاة وأهلها يزفون الزوج الذي يخطب ابنتهم بميزان المال ، ويفضلون خطيبا على آخر من حيث قدرته على الإنفاق . وكثيرا ما يضحون باعتبارات كثيرة كالسن أو الجمال أو المنزلة الاجتماعية

ويفضلون صاحب الثروة الذى يستطيع الإنفاق على الدار واقتناء الأثاث والحشم والخدم . ولعلمهم فى ذلك على حق ، لأن الحياة الجنسية الصحيحة ، من أى ناحية نظرت إليها ، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أم الاجتماعية ، فإنها لا تستقيم إلا مع الزواج ، والزواج يتطلب الاستقلال فى بيت خاص ويحتاج إلى نفقة فى أجره وإضافته وخدمته وفى الطعام والشراب والملبس . هذا إلى أن الزواج لا ينتهى مع اتصال الرجل بالمرأة ، أو الزوج بالزوجة وإشباع الرغبة الجنسية ، بل له غاية أسمى وأعمق هى إنجاب الأولاد ، ولهذا السبب يتزوج الناس ، ويصبحون أرباب أسرة . ونحن نعلم كم يكلف الولد فى العصر الحديث ، وكم يحتاج من مال فى تربيته التربية اللائقة . فما بالك إذا كثرت النسل وأنجب الرجل عدة أبناء ، فإنه يحتاج إلى مال وفير ليحفظ لهم المستوى الذى يطمع فيه من صحة وثقافة . ولهذا السبب يؤثر كثير من الناس الامتناع عن الزواج لما يتطلبه من نفقة ، وإذا تزوج أحدهم عمل على تحديد النسل حتى لا يقع فى هذه المحظورات .

وإذا كان المال يحقق كما رأينا الأمن ، ويوفر الحياة الجنسية ، فإنه كذلك يحقق دافعاً من الدوافع الهامة فى سلوك الإنسان ، يجعله العالم النفسانى أدلر على رأس الدوافع الإنسانية ، وهو السيطرة . لقد أصبح الساطان الحقيقى ساطان المال ، به نصل إلى المنزلة الاجتماعية ، وبه يحقق المظاهر المختلفة التى نحب كل واحد أن يحيط نفسه بها ، من اقتناء منزل عظيم ، وسيارات فاخرة ، وخدم يقفون بالأبواب ، وحفلات يدعى إليها الأهل والأصدقاء ، فضلاً عن مظاهر الزينة التى يفتن بها الناس افتتاناً ، ويحيطون بها أنفسهم فى الدور والقصور ، ويحلون بها أجسامهم كالحواتم والعقود . ويبدو أن حب الزينة والفخفة والتظاهر من الفطائر التى لا يستغنى عنها المرء فى تاريخه القديم أو فى الزمن الحاضر . ونحن نقرأ فى التاريخ عن زواج قطر الندى بـ بنت خمارويه وكيف جهزها أبوها بصناديق ملئت بالجوهر الكريم والذهب البراق ، فنعلم أن قيمة الناس فيما يملكون من مال .

كل شيء يشتري بالمال إلا شيئاً واحداً هو المعاني الروحية التي لا تقدر بالموازين المادية ، كالحب والسعادة ، ولذلك كثيراً ما نسمع عن انتحار بعض الأغنياء ، أو طلاق أزواج في غاية الثراء ، أو دخول بعض الناس الدير للترهب زهداً في الدنيا ، وطلباً لنعيم الآخرة ، كما قال تعالى : والآخرة خير وأبقى . .

البخل

البخل ظاهرة تشيع في كل عصر وتسود في كل أمة ، حتى لقد ألف فيها الجاحظ كتاب البخلاء جمع فيه نوادرهم ووصف أحوالهم ، ولا يزال كتابه درة من عيون الأدب .

وصنف أدباء الغرب في البخل الروايات والتمثيلات ، ونظموا في ذلك الأشعار ، وسجلوا الحكم ، وقيدوا المواعظ . وهو بعد خصلة مذمومة نهى الله تعالى عنها فقال : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، فقد جعل الله النهي في صيغة الأمر طلباً لصلاح الأنفس وقيام العمران .

والبخلاء أصناف ، منهم من يصطنع البخل لتأمين حياته من الفقر والخوف والهلع ، وصنف يخضع بخله للطموح والطمع ، ونوع ثالث يبخل للجشع ويطلب ألواناً من المتع . وهذا يدل على أن البخل يرجع إلى أصالين مختلفين ، أحدهما حب الاستقلال أو الرغبة في الأمن ، والثاني نزعة السيطرة وحب الجشع .

ويلبغى أن نعلم أن البخيل لا يولد كذلك ، بل هذه خصلة تنشأ وتنمو مع الزمن ، وعادة يُستهى إليها بالآلفة ، فلم يكن غرض البخيل الذي يهدف إليه في أول الأمر المال لذاته ، بل تحقيق هذه المطالب كالآمن من الخوف والفقر أو الغلبة والسلطان ، باعتبار أن جمع المال هو السبيل إلى ذلك . فإذا به ينتهى إلى محبة المال لذاته ، ويصبح جمعه غرضاً بعد أن كان وسيلة . كالحال في الحبيب الذي يتخذ واسطة بينه وبين محبوبته ، ثم ينتهى إلى محبة الرسول التي كانت واسطة بينهما .

وللبخل تفسير آخر مستمد من أصول علم الحياة . ذلك أن كل كائن حي ، نباتاً كان أم حيواناً ، يحرص على بقائه بالفطرة والغريزة ، وحب البقاء غريزة كذلك في الإنسان ولكن يضاف إليها العقل . فالجمع والاقتناء والاختزان ظاهرة حيوية توجد في الحيوانات بغير شعور . بل إنها توجد في خلايا الحيوان قبل أن توجد في سلوكه بأجمعه فالحلية تخزن مادتها الحية بما تتغذى به فيما بعد . ويخزن الجمل في سنامه الشحم والماء كي يجتاز الصحراء . ويحتفظ الصبار وهو من النباتات الصحراوية الماء في أوراقه ، ويجمع النحل العسل في الخلايا صيفاً ليتغذى منه في الشتاء . ولسكننا لا نقول إن النحل أو الطير يخيل لأنها تجمع الغذاء وتخزنه لأنها تفعل ذلك بدافع من وحى الغريزة ، ويفعله الإنسان بدافع من العقل والشعور . وإذا حصل الحيوان على حاجته قنع واكتفى : أما بخل الإنسان فلا نهاية له ولا يعرف الحدود .

فالبخل مذموم لأنه تطرف في الجمع والاقتناء وإفراط في الاختزان ، ولذلك جعلوا الاقتصاد فضيلة ورفضوا البخل إلى مرتبة الرذائل ، وكأنه انحراف بالفطرة نحو الفساد .

وللبخلاء في جمع المال نواذر هي إلى الفكاهة أقرب . أعرف جاراً كان يعيش من أرض يؤجرها ولم يكن إيرادهما كبيراً . وكان يقتصد في النفقة اقتصاداً شديداً حتى يتضاعف الربيع ، ومن أمثلة اقتصاده أن يستيقظ من النوم متأخراً حتى يجمع بين طعام الإفطار والغداء ، فتكون أكلة واحدة بدلاً من أكلتين . وكل درهم يقتصده ثروة ، لأن الدرهم على الدرهم مال ، والفطرة على القطرة بحر . ويقتصد قوم من نفقة الركوب ، وبخاصة في المدن الحديثة حيث تكثر السيارات والترام ، ويقولون : في المشي رياضة والسير على الأقدام صحة ، لأن السمي هو الأصل في الحياة والسكون موت ، فضلاً عن توفير أجرة الترام ونفقة السيارة .

وأغلب البخلاء نشأوا في أحضان الفقر ، وذاقوا طعم الذل ، وعرفوا قدر المال وقد روى عن بخلاء من أبناء الأغنياء ، وهؤلاء شواذ من القاعدة ، فالبخل استجابة

طبيعية لموقف سابق رأى فيه البخيل الحرمان رأى العين ، فعزم على تأمين نفسه من تلك المواقف التى يمد فيها يده للناس ويشعر بالحاجة إليهم . ولذلك يبدأ بحرمان نفسه من أنواع المتاع ، ويعلم نفسه احتقار المظاهر ولا يأنف أن يرقع الثوب ويخصف النعل ويصوم فى الأسبوع يوماً أو يومين ، ثم يحتاج لذلك بشتى الحجج ، بل يستندون إلى الدين فيقول قائلهم : كان النبي عليه السلام يرقع ثوبه ويخصف نعله ، وكان السابقون الصالحون يصومون الدهر ، ويروى عن أبى بكر الصديق قوله : إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى اليوم .

فأنت ترى كيف يدور تفكير البخيل حول المال واقتنائه ، فلا يعود يبصر غير ذلك . ولذلك يبرع فى فن الاقتصاد واستثمار المال . ويعمل حساباً لكل صغيرة وكبيرة ، وينظر إلى المستقبل البعيد ، ويثبت إرادته على الشح والتقتير فلا تزحزح إرادته أى عاطفة ولو كانت عاطفة الأبوة . وكمن من والبخيل كان يحرم أبناءه النفقة ، فكان ذلك سبباً فى تضییع الأبناء الثروة بعد موت أبيهم .

والبخل إذا اشتد يمتت العاطفة ، ويجعل القلب جامداً ، والعقل محدوداً قاصراً ، ويلبس البخيل مسوح الصوفية ، واسكنه يفى ذاته فى المال ، بينما يفى الصوفى ذاته فى الله .

وينشأ عن اقتصار عقل البخيل على المال وحده أن يعمى عن سائر الحركات الإنسانية الجارية كالهنون والآداب والعلوم والمشكلات الاجتماعية .

هذه الخلال التى يتطبع بها البخيل ، من جمود القلب ، وضيق العقل ، والعزلة عن الناس ، تفضى به إلى الاستبداد . وقد حدثنا الروائى الفرنسى بلزاك فى قصة جرانديه كيف كان يستبد بزوجه ويفزع ابنه . وهذا كله ناشئ من شعوره بانتصار إرادته التى تغلب بها على نفسه فى سبيل جمع المال ، فلم يعد يحفل بمطالب الجسم ، فيخيل إليه أن إرادته أصبحت من حديد ، ويستطيع أن يتغلب بها على كل شيء . واسكن إرادته لا تنفذ إلا فى أهله الذين يخضعون له بالطبيعة ، ومع ذلك فكثيراً ما يشور الخدم والزوج والولد فيهجرون هذا الرب البخيل .

ولا تحسبن أن أغنياء البخلاء يحسنون أعمال التجارة أو الصناعة مما تحتاج إلى مجازفة ، فقد طبعوا على الخوف ، وما كان جمعهم المال إلا لتأمين أنفسهم ، وهم لذلك يكتزون المال فلا ينتفعون ولا ينفعون به الناس . وإنما كل همهم جمعه وتكديسه وعده . فهم يحبون الادخار ولا يميلون إلى المخاطر . ولذلك قل أن تجد بخيلاً ينزع إلى الجريمة ، لأنه مطبوع على الخوف والحرص لا على المخاطرة والإقدام .

وهذا الميل إلى الأمن والجمع والادخار يدفع البخيل إلى العزلة عن الناس والابتعاد عنهم ، ولا يحب أن يطلعهم على أحواله ، فهو قليل الكلام ، قليل الاختلاط . لا تهمة أفراح الناس وأحزانهم ، ولا يشاركونهم في متاعبهم وآلامهم .

روى الجاحظ قصة بعض البخلاء كان يأكل في بعض المواضع إذ مر به رجل فسلم عليه فرد السلام . فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعاً يريد أن يعبر النهر قال : مكانك فإن العجلة من الشيطان . فوقف الرجل . فأقبل عليه البخيل وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أنغدى قال : ولم ذلك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟ قال الرجل أوليس قد دعوتني ؟ قال : وينك لو ظننت أنك أحق هكذا مارددت عليك السلام . القانون فيما نحن فيه أن نكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك وعليكم السلام . فإن كنت لا آكل شيئاً سكنت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت وقعدت أنا على حالي . وإن كنت آكل فيها هنا بيان آخر ، وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلم ، وتجب أنت فتقول هنيئاً ، فيكون كلام بكلام . فأما كلام بفعال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .

ومما لاحظته بعض علماء النفس المحدثين أن البخيل طويل العمر ، وذلك لأن الاقتصاد في المال الذي يمتاز به يشمل جميع قواه النفسية ، فهو يقتصد في التفكير ويقتصد في الكلام والحديث ، ولا يسرف في الانفعال أو الأعمال . وليس أضر بالحياة من التعرض للانفعالات والمخاطر .

وما سجله علماء النفس كذلك عن البخلاء قلة ثقتهم بالناس ، واعتمادهم على أنفسهم كل الاعتماد ، وعدم تصديقهم ما يقال ولو كان شديد الوضوح لا يقبل الجدل . فهم أدنى إلى الواقع وأبعد عن الخيال . ولا يحكمون على الأشياء إلا بمقتضى تجاربهم الخاصة ، مهما تكن هذه التجربة محدودة ، ولا يصدقون إلا ما شاهدوه وأحسوه ، فإذا وثقوا في أحد فإنما يثقون به لأنه على شاكلتهم .

والبخلاء إلى ذلك فيهم فكاهة لطيفة . كان أحمد بن خلف اليزيدي من ظرافتهم فألح عليه أصدقاؤه أن يدعوهم ، فلما بلغ منه ومنهم المجهود اتخذ لهم طعاماً خفيفاً لا مؤونة فيه . فلما أكلوا وغسلوا أيديهم أقبل عليهم فقال : أسألكم بالله ، أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا : ما نشك أنك كنت والطعام في ملكك أغنى وأيسر . قال : فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر . قال : من يلومني على ترك دعوة قوم قربوني من الفقر وباعدوني من الغنى .

مآدن

أصناف الناس

المسلمون

المعتدون

الواهمون

ثمن الناس

في الصداقة والصديق

أصناف الناس المسلمون

الناس أصناف ، تجمعهم الإنسانية أو لفظة إنسان ، ولكنهم ينقسمون فيما بينهم صنوفاً على حسب وجهة النظر التي تتخذها . قد نقول الإنسانية جنسان الذكور والإناث أو الرجال والنساء . وقد نقول بحسب السن الأطفال والشباب والكمول ، أو بحسب اللون البيض والسمر والسود ، وهكذا .

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى قسمة أخرى بحسب الأمراض النفسية ، وبحسب المجتمع فقالوا : من الناس من يقبل على المجتمع الذي يعيش فيه ويحاول الشركة مع أفرادها في التعامل ، وهؤلاء هم الوادعون المسلمون . ومنهم من يخرج على المجتمع ويحاول الاعتداء على أفرادها وهم المشاكسون . ومنهم من يهرب من المجتمع ومن نفسه فيتصور أنه شخصية جديدة تعيش في عالم الوهم والخيال ، وهم الواهمون أو الخالمون .

ويبدو أن هذا التقسيم على صواب ، نعى النظر إلى المجتمع حين ننظر إلى الفرد ، إذ لا ريب أن كل إنسان يعيش في جماعة ويتصل بها أوثق الاتصال في أسرته وفي مدرسته وفي وطنه . أما أولئك الذين يذهبون إلى أن الفرد مستقل الكيان يمكن أن ننظر إليه على حدة بصرف النظر عن المجتمع الذي يعيش فيه ، ويقولون بوجوده علم نفس فردي ، فهؤلاء واهمون .

حقاً يسمى الشخص شخصاً لأنه فرد ، ولأنه ذات مستقلة ، ولذلك كانت له شخصية ، إلا أن هذه الشخصية نسبية ، أي أنها توصف كذلك بالنسبة إلى غيرها من الأشخاص . نقول هذا الشخص ذكي بالنسبة إلى الأغبياء ، وقد يكون غيباً بالنسبة إلى أشخاص أشد ذكاء . بل إن ما يحدد شخصيته ويبرز معالمها هو اتصاله بغيره من الناس ، ولو أنك انتقلت من الجماعة التي تعيش فيها إلى جماعة أخرى لتغيرت شخصيتك ، واكتسبت شخصية جديدة ، نتيجة التعامل مع هذه الجماعة الجديدة .

فنحن إذن على حق حين نقول إن اتصال المرء بالمجتمع يخلق منه أحد أشخاص ثلاثة : المسالم والمشاكس والواهم .

المسالم أو الوديع هو ذلك الذى يتجه نحو الجماعة ويقبل على الناس . إنه يريدهم ل حاجته إليهم ، فهو يحتاج إلى العطف والمحبة ، وإلى التأييد والاطمئنان ، وإلى الشركة بوجه خاص . هذا الصنف يصبح صديقاً ومحباً ، وزوجاً يحتمل مسئولية الحياة بما فيها من خير وشر .

ومتى اتصل المسالم بغيره كالصديق أو الحبيب أو الزوجة . أصبح شريكاً يتعلق بهذا الشخص الآخر وقد يخضع له ، ويفهم الأمور من وجهة نظره . وهو لهذا السبب قد يخطئ في تقدير الظروف لا عن جهل أو غباء أو عجز عن الإدراك ، بل عن ضرورة هذه الحاجة الملحة إلى طلب الناس . إنه يحس إحساس الطفل الصغير تحيطه الحيوانات المفترسة تريد اغتياله . رأى أحدهم فى الرؤيا أو الحلم أنه يقف وحيداً وإذا بنحلة كبيرة تريد أن تلسعه ، وكلب يهم بهضه . ونقطة توشك أن تنقض عليه . وتفسير هذه الرؤيا أن صاحب الحلم يهجز عن الاعتماد على نفسه ، ويرى المجتمع ذئاباً تريد أن تنقض عليه فتنهشه ، وهو لذلك يرغب فى المسالمة وفى المحبة وفى العطف . يريد أن يشعر أنه مطلوب مرغوب فيه محبوب ، يرحب به الناس إذا أقبل عليهم ، ويقدرونه إذا قام بعمل من الأعمال ، بل أكثر من هذا يريد من الناس مساعدتهم له ، وحمايتهم إياه وإرشادهم له والعناية بأمره .

ووراء ذلك كله الشعور بالأمن المفقود .

ويقوده طلب الأمن إلى صيغ سلوكه ونصرفاته بصيغة خاصة ، تصبح مع طول الزمان خلالاً تتميز بها شخصيته .

فهو شديد الإحساس بما يطلب الناس ، ولا يرد لهم طلباً ، بل يصل إلى حد الإسراع فى تحقيق المطالب . وهو فى سبيل ذلك قد يلبس نفسه فيصبح مضحياً بنفسه مؤثراً غيره عليها ، إلا فيما يختص بالحب وهو مطلبه الأول . ومن الصفات التى تسود هذا الصنف من الناس الوداعة والركة والكرم . وهذا الصنف يتجنب

نظرة الشر والسوء ، وابتعد عن المنازعات والمخاصمات ، ولا ينزل إلى ميدان التنافس بل قد يميل إلى الخضوع ، أو يتخذ لنفسه موضعاً في الصفوف الثانية لا الأولى ، فيترك الظهور والبروز لغيره من المكافحين . وليس معنى ذلك أن الرغبة في الانتقام أو الانتصار لا تأكل نفسه ، واسكنه يَكْبِت كل صوت ينادى بالسيطرة أو الثأر ، والسلطان لا يزول من نفسه لمجرد إخفائه وقد ينفجر يوماً من الأيام ، وعندئذ تكون ثورته رهيبة عنيفة ، كما قيل في الأمثال : اتق غضب الحليم ،

ومن طرائف هذا الصنف نظرتهم إلى أنفسهم ، إنهم يعتقدون في أنفسهم الضعف والعجز ، ويحسون بشعور الصغار والضعفة . فإذا ترك شأنه خيل إليه أنه هالك لا محالة كالسفينة التي تنحل عن الشاطئ فتقاذفها الأمواج ولا تعرف شاطئ النجاة فهؤلاء كالسفينة الضائعة يتصورون أنهم غير مستقرين ولا يعرفون لأنفسهم براً يطمنون إليه ، ولذلك كانوا في شكوى لا تنقطع وهم دائم ، ويقولون في الاعتذار عن الأخطاء : يجب أن تصفح عني وأن تغفر لي لأني ضعيف عاجز ، وحيث أن هذا الصنف يخضع لغيره كما قلنا ، فهو يعتقد أن كل إنسان أعلى منه ذكراً وأعظم منزلة ، وأقوى جاذبية ، وأوفر ذكاء ، وأغزر علماً ، حتى لقد يتضائل أمامه .

هؤلاء المسلمون لا يعرفون قدر أنفسهم ولو عرفوا قدرها مارضوا بهذه المنزلة ولذلك يعتمدون في تقدير أنفسهم على ما يقوله غيرهم فيهم ، وهم لذلك يخافون النقد ويخشون الهجوم .

جملة القول يؤثر المسلم الحب والعطف والطيبة والجود والإيثار والخضوع ، وينفر من الأثرة والطموح والقوة والوعورة ولو أنه يقدر هذه الصفات بينه وبين نفسه .

ومن الخطأ أن نصف المسلمين بصفة واحدة من هذه الصفات كأن نعتهم بالخضوع كما يذهب أدلر ، وإنما الصواب أن نرجع بهم إلى موقفهم من المجتمع .

فهم يتجمعون نحوه ، ويقبلون عليه ويتمسكون بمودة الأفراد، ولذلك كانوا مسلمين خاضعين كرماء وما إلى ذلك .

على أن انصرفهم عن السيطرة والقررة أمر لا يخلو من عجب لأن هذا يتنافى الطبيعة الإنسانية والواقع أن هذه النزعات تظهر في أنفسهم ولسكنهم يكتبونها على حسب ما يقول فرييد . ويحدث هذا السكبت بدون شعور أو بغير وعي . ولكن كل كبت له علة ، فما هي العلة التي تدفع المسلم إلى كبت مثل هذه النوازع ؟ وما الفائدة التي يجنيها من قتل هذه القوى الطبيعية ؟

العلة في ذلك أن شعور العدا . والقيام بالعدوان ، يجعل الشخص مكروها فيفقد محبة الناس له . وهناك علة أخرى لسكبت نوازع القوة والطموح هي القضاء على كل صراع داخلي ، والصراع يؤدي إلى انحلال الشخصية وهو السبب الأعظم في أغلب الأمراض النفسية . ووحدة الشخصية سبيل إلى الهدوء والاطمئنان .

حدثني طالب أنه لا يستطيع الانتباه أو استذكار دروسه ، ولم يكن صغير السن ولا يشكو فقرا ، فرأيت أنه يشبع رغبته الجلوسية مع بنات الهوى فإذا عاد إلى نفسه استيقظ ضميره الديني وعذبه ، فكان في صراع داخلي بين الغريزة والدين ، بين الشر والخير ، ولم تهدأ نفسه وتنحل عقده إلا بعد القضاء على هذا الصراع . وحل مشكلة هؤلاء القوم لا تكون إلا بالزواج . وهم يطلبون الزواج لا لإشباع الرغبة الجنسية المادية ، بل لشيء أعظم من هذا هو تحقيق المحبة . فالحب عندهم هو الغرض الأسمى الذي يسعون إليه ، وتبدو الحياة بغير حب فارغة لا قيمة لها ، وتصبح سائر الأشياء والأعمال خالية من المعنى بغير هذه الصلة التي تجعل للحياة طمعا وتنفع فيها روحا .

ولقد أفصح عن هذه المعاني كلها مجنون، ليلى حين يقول :

فأمرض قلبي حبها وطلائها	فيا آل ليلى دعوة كيف أصنع
سأتبع ليلى حيث حلت وخيمت	وما الناس إلا آلف ومودع
كأن زماما في الفؤاد معلقا	تقود به حيث استمرت وأنبع

أصناف الناس : المعتدون

وهذا صنف آخر من الناس يخالف الصنف الذى سميناه بالمسلمين الذين ينشدون السلم ويؤثرون العافية ويتوجهون إلى الجماعة يلتمسون فيها المحبة والمودة ، فهم مع الناس حتى يقال عن الواحد منهم إذا أسرف فى هذه النزعة « لمعة » ،

ولست أدري كيف أسمى هذا الصنف الجديد . بدا لى أنه مشاكس ، إلا أن هذا المعنى قد ينصرف إلى الشر والعبث ، ولا يعبر التعبير الصحيح عن المطلوب . نريد أن نقول عن هذا الضرب من الناس إنه نزاع إلى الاعتداء ، والإفراط فى العدوان قد يسمى طغياناً ، كما قال تعالى « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » والعدوان أو المهاجمة هو المعنى الذى تقصده وهو الذى يصاد السلم ، وفى هذا المعنى نظم يزيد بن ضبة شعراً يهاجم فيه ، هشام بن عبد الملك ، لأنه حين ارتقى عرش الخلافة ذهب إليه مهتماً ، وقام الخطباء يثنون عليه ويمدحونه ، فاستأذنه يزيد بن ضبة فى الإنشاد فلم يأذن له . فقال فى قصيدة مطلعها :

أرى سلى تصد وما صددنا وغير صدودها كنا أردنا

إلى أن قال :

نكوى بالعداوة من بغانا ونسعد بالمودة من رددنا

فهذا الشاعر يعزم على العدوان يرد به على البغى فيما يزعم ، ولم يكن الخليفة باغياً ، وإنما كان الشاعر يطالب التقرب على حساب غيره من الشعراء ، وينشد النجاح وما يثمره ذلك من صلوات ودنانير . وليست الحياة إلا كفاحاً كما صورها داروين فى عالم الأحياء . ورأى أن الغلبة فى هذا الصراع للأقوى . ومن الناس قوم ينظرون إلى الإنسانية كأنها مجتمع حيوانى يعتدى فيه القوى على الضعيف والويل للملوك . ولذلك كانت غاية هذا الصنف إخضاع غيره من الناس لسلطانه . وتختلف أساليب السيطرة من شخص إلى آخر ، فواحد ينزع إلى القوة الجسدية ،

كما هي حال الفتوات ، من أولاد البلد . فلا يقر للفتوة قراراً إلا إذا نزل في خنقه ، وضرب بالروسية والكراسى والعصى والنباييت ، . ولا تعد حفلة زفاف الفتوة ناجحة إلا إذا اعتدى على فتوات الأحياء الأخرى وسالت الدماء وأطاح الضرب بالرؤوس .

غير أن الفتوة في الزمن القديم كانت شيئاً آخر أكثر من إظهار القوة البدنية ، نعى النجدة وحماية الضعيف . ولعل ذلك من الأنظمة التي سادت في العصر الوسيط وكانت تعرف بالفروسية . ولا يزال قوم يبدون قوتهم في مديد المعونة حتى يخضع الناس لسلطان العمل الصالح الذي يقدمونه ، وقد يعتمد على ذكائهم في التمييز عن الناس والترفع عليهم .

وعلى العكس من المسالم الذي يخضع نفسه للناس ، يجتهد المعتدى في استغلال الناس ، واستخدامهم لمصلحته ، فهو يحدث نفسه حين يعرف شخصاً جديداً فيقول : كيف استفيد منه ، سواء أ كانت هذه الفائدة مالية أم أدبية أم اجتماعية . ويخيل إلى هذا الصنف أن جميع الناس على هذه الحال من الاستغلال .

وهذه النزعة تفضى بأصحابها إلى اكتساب مظهر الخشونة . وقد لا يكونون كذلك في الواقع .

وهم لا يعرفون الحب ، ولا يقدرّون الصداقة . لأن الحب في جوهره إثار وتضحية ، فإذا تزوجوا كان الزواج للمصلحة ، فيتخذ الزوجة لا ليسكن إليها ، ولا ليشد في أحضانها المودة والرحمة ، بل للمال ، أو الجاه ، أو ترتيب الدار .

على أن هذا الصنف لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً ، أو إذا شئت التحديد ، يغالب الخوف فيصرعه ، لأن الخوف فطرة طبيعية في كل نفس ، فهو يقذف بنفسه في المهالك ويعود نفسه الجرأة ، قد يحبس نفسه في بيت مهجور ولا يخشى اللصوص أو العفاريت ، ويحتاز المفاوز المفزعة في الظلام الدامس ، وقد يهرب كثيرون منها . والأرجح أن التغلب على الخوف عادة يألفها المرء منذ الصغر ، وقد تجد كثيراً

من المسلمين لا يهابون الأخطار ، أذكر وأنا طفل صغير أو هكذا كان أهلى يحكون ، أننى كنت أخاف الكابوس ، ، وكنت أتصور الكابوس فى الرؤيا شيئاً مفزعاً هو مزيج من الحيوان والعفريت ، وكنت لذلك أهرب صعود سلالم الدار فى الظلام ، حتى إذا صلب عودى لم أعد أفزع من شىء .

والمعتدون محاربون بالطبع ، إما بقوة الإقناع ، وإما بشدة السواعد والسلاح إذا لم يفلح المنطق ولم يقنع البرهان ، ومنهم المشاغبون أو المشاكسون الذين يفنون أعمارهم فى المحاكم ويرفعون القضايا يطالبون فيها بالحقوق . فإذا خسروا القضايا لم يعدوا وسيلة أخرى من وسائل الوصول إلى المآرب وتحقيقتها ، وهى وسائل تسود فى الريف المصرى ويعرفها الفلاحون ، نعى حرق زراعة الخصم ، وسرقة مواشيه ، واقتلاع محصولاته ، وهذا انحراف بالاعتداء إلى ناحية الشر ، كأن القانون الذى يهدى هؤلاء القوم هو قانون الغابة .

ويتصف المعتدون بصفات يتسمون بها وتعرف عنهم ، وهى ناشئة عن طلب القوة والحدق . إنهم يبذلون أقصى ما يمكن بذله فى العمل ، ولذلك يكون الواحد منهم موظفاً بارزاً فى عمله ، أو ما يسمونه الموظف الكفء ، والتليذ المجتهد ، ورجل الأعمال الناجح ، فيقدره الرؤساء والاساتذة وأصحاب الأعمال . هذا إذا رضى مثل هذا الصنف بالبقاء فى منزلة التابعين ، ولكن الغالب أنهم يطمحون فى مرتبة الرؤساء .

ويترتب على الإخلاص فى العمل والإقبال عليه مع موالاته واليقظة فيه ، قوة الإرادة ونفاذ العزيمة . يحب المعتدون أن تتحقق رغباتهم وتطاع أوامره ، وألا يقف شىء فى سبيل ما يريدون ، والغالب أنهم من الناحية الفلسفية يميلون إلى المذهب الواقعى الذى ينظر إلى الحياة كما هى بما فيها من خير وشر ، وهم يحلون المشاكل حلاً واقعياً بعيداً عن التأثر بالعواطف والصدقات .

وقد توصف الشعوب بأحد الصنفين ، فهناك شعب أغلب أفراده مسالمون ، وشعب معظم أفراده معتدون . وأظن أن الشعب المصرى ، إذا حكمنا عليه من

استقراء التاريخ لرأينا أنه في جملته مسالم لا يميل إلى العدوان . ولا يحب شق الطريق والانتغماس في المخاطر ، وهو لذلك لا يميل إلى الابتداء بالحرب واستعمار الشعوب المجاورة ، بل على العكس يدل التاريخ على أنه كان ضحية الغزوات الخارجية وعدوان المستعمرين ، ولا يحب أفراد الهجرة والتماس الرزق في الأماكن البعيدة عن الأهل والأصدقاء والأحباء ، حتى لقد يخشى الموظف أن ينقل من المدينة التي نشأ فيها . وليست هذه الصفات فطرية لا يمكن تعديلها بل هي ناشئة عن التربية من جهة ، وعن ظروف البيئة للسهولة التي عرفت مصر بها من جهة أخرى ، وأكبر الظن أن تغير الظروف الحاضرة ، مع ازدياد عدد السكان ، والتطلع إلى الحياة أرقى ، كل ذلك سوف يدفع المصريين إلى النزعة العدوانية حفظا للحياة . ومن الخير للمصريين أن يميلوا إلى ناحية العدوان فقد طال بهم عهد الركود والاستسلام .

ومن الأمثلة على الشعوب العدوانية ، ولا نقصد بذلك الميل إلى الحرب دون مبرر ، بل الجنوح إلى إبراز شخصية الفرد في كل مجال ، الشعب الأمريكي ، والمشهور أنه من نسل المغامرين الذين هاجروا من أوروبا يستعمرون الدنيا الجديدة ويقيمون على أرضها حضارة ويكسبون ثروة . ولا تزال هذه النزعة تملك معظم أهلهم حتى اليوم .

ولكن ما حال الشخص الذي تتعادل في نفسه النزعتان ، نزعة السلام ونزعة العدوان ؟ إذ لم يستطع هذا الشخص تغليب إحدى النزعتين ، حدث في نفسه صراع شديد ، هو السر في ظهور اضطراب نفسي لا سبيل إلى علاجه إلا بالخروج من هذه المشكلة بترجيح جانب على آخر ، إما الخضوع والاستسلام ، وإما الاعتداء وطلب السلطان .

جملة القول أن المسلم إذا شتمه شخص قال : سأكحك الله . أما المعتدى فإنه يرد الشتائم بأحسن منها أو بأوجع ، وإذا رأى المسلم سائلا أعطاه ورق لحاله ، أما المعتدى فإنه ينهره ويطرده . وإذا مرضت زوجة المسلم قام بتمريضها وسهر على راحتها وصبر على بلواها ، أما المعتدى فإنه يطلقها أو يتزوج أخرى عليها .

أصناف الناس : الواهمون

هذا هو الصنف الثالث من الناس . فالأول هو الذى يقبل على الناس ويربط نفسه بأفراد المجتمع وهو المسلم . والثانى هو الذى يهاجم المجتمع إذ يرى الحياة كفاحا تقتضى الحرب للنصر فيها وهو المعتسدى . والصنف الثالث لا يقبل على المجتمع مسلما ، ولا يهاجمه معتديا . بل ينفر منه ، ويتعد عنه ، ويقطع العلائق به . ويرغب فى العزلة والانفراد .

وقد تكون هذه العزلة حقيقة واقعة فيعتكف بعض الناس كالراهب فى صومعته أو الصوفى فى الخلوة لا يتصل بأحد وفى مصر طريقة من طرق الصوفية تعرف باسم الخلوتية ، أكبر الظن أنها سميت كذلك نسبة إلى خلوتهم فى الخلوة ، لا إلى شخص اسمه الخلوتى مثلا .

وقد تكون العزلة وهمية ، مثالية ، فيتعامل الشخص مع الناس المعاملة الضرورية التى لا تزيد على مجرد المجاملة . ولسكنه فى الحقيقة يعيش فى عالم من نسيج خياله . وهؤلاء على ضربين : إما قوم يصيبهم الذهول فيكون الواحد منهم جالسا مع غيره فلا يلتفت إلى ما يدور حوله . ولعلك تلاحظ مثل هؤلاء فى الطريق وقد زاغ بصرهم ، وذهبت حواسهم حتى لقد يدهمه الترام دون أن يتنبه . والضرب الثانى يخلق لنفسه مجتمعا فى الوهم والخيال ، ويتصور نفسه على منزلة عظيمة فى هذا المجتمع الموهوم . ولهذا السبب أطلقنا على هذا الصنف اسم الواهمين أو الحالمين على الرغم من تفاوت الأفراد واختلاف حالة أحدهم عن الآخر .

وهم على اختلافهم وتباينهم يشتركون فى بعض السمات العامة . منها غرابة الأطوار ، وهذا ناشئ من الابتعاد عن المجتمع والانصراف عنه والانطواء على النفس ، يحكى عن الفارابى الفيلسوف أنه كان يحب العزلة ، ولم يكن معتنيا بهيئة ولا منزل ولا مكسب ، ويذكر أنه كان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط ، ويرى الانفراد على شرب الخمر ولا يحب المنادمة عليها .

ومنها التأمل أو النظر إلى النفس ، وهذا شيء طبيعي لأن الذي يقطع علائقه بالمجتمع ينفق وقته يتأمل في نفسه . وهذه مقدرة لا تتوافر لكل إنسان . فإذا استطاع أحد هؤلاء الواهمين أن يتحدث عن تأملاته أصبح أديبا بصور النفس الإنسانية وأحوالهما ، أو فيلسوفا ومفكرا مثل ديكارت والفارابي الذي حدثتك عنه .

والمقصود بانقطاع العلاقات بين الواهم وبين الناس العلاقة العاطفية ، كأن بينهم وبين الناس جفوة أو فجوة ، وهم في ذلك على نقيض المسلمين الذين يطلبون المودة والمحبة ، وهذه الأحوال تقع لهم في بعض الأوقات من الحياة وتعد ضربا من الشذوذ ، وقد تعول هذه الفترات أياما وقد تمتد شهورا أو سنوات . وأظن أن كل واحد منا تعريه هذه النوبات من الانفصال عن المجتمع والافتراق بالنفس ، ولكنها نوبات لا تدوم أكثر من لحظات قد تمتد إلى ساعات ولكنها لا تتجاوز ذلك إلى الأيام والإسابيع وإلا عد صاحبها شاذا مريضا يحتاج إلى العلاج .

ولما كان الواهمون يبتعدون عن المجتمع فإنهم يقصرون أنفسهم على حاجاتهم الضرورية لا تمتد أيديهم إلى غيرهم . وإذا كان كل منا لا يحب السؤال أو الاعتماد على غيره ، فهو لاء يسرفون في الكفاية الذاتية ، ولذلك يكتفون بالقليل ، بل بما هو دون القليل ، كما يفعل الزهاد

ومن غرائبهم أن أحدهم إذا أصابه مرض تحامل على نفسه ، ولم يئن أو يتوجع لأن الشكوى تدفعهم إلى طلب المعونة من الناس ، وهم لا يريدون أن يتصل بالناس كل ذلك يجعل من الواهم عالما من الأسرار لا يعلم أحد ماذا يجري بداخله ، فهو في الغالب يأكل ويشرب وينام وحيدا لا يحب الشركة مع الأهل أو الأصدقاء . أما المسلم فلا يطيب له طعام إلا إذا شاركه عليه أحد .

ولعل السلوك الذي يتبين منه الاكتفاء الذاتي والخفاء أو السرية ، مرجعه إلى الرغبة في الاستقلال ، والنزعة إلى الاستقلال مظاهر لحب السيطرة ، إذ أن الواهم

على العكس من المعتدى لا يحب أن ينزل في مشاكسة أو منافسة .

والأغلب في هؤلاء الواهمين أنهم لا يميلون إلى الزواج ، لأن الزواج صلة بشخص آخر ، وهمهم في العزلة والانفراد . والأغرب من ذلك أنهم لا يحبون أن يوقعوا عقدا كالبيع والشراء . وليس الزواج إلا عقدا يجعل صاحبه مسئولا أمام شخص آخر ، وترجع العلة في ذلك إلى هربهم من المسؤولية وخشيتهم من تنفيذ الوعد . وقد أطلق بعض المحدثين على الواهمين الذين يحبون معيشة العزلة اسم أولئك الذين يعيشون في « أبراج عاجية » ، ومعنى ذلك أنهم يرفعون أنفسهم فوق مستوى المجتمع ليحس بالسيطرة أو السلطان . ونحن نعلم أن حب السيطرة نزعة طبيعية جعلها « أدلر » ، النزعة الوحيدة التي تسوق الناس في الحياة ، ولا ريب في أن الواهم لم يولد كذلك وإنما دفعته الظروف في الحياة في الطفولة أو الشباب أو في أية فترة من الفترات إلى اتخاذ هذا الموقف ، ولا ريب في أنه نزل إلى ميدان المجتمع وجرب حظه فيه مسالما أو مهاجما فتغلب عليه غيره ولم يفز بما يطمع من سيطرة فانسحب من الميدان ، وخلق لنفسه هذا العالم الوهمي الذي يتربع على عرشه . وقد تزيد حالة هؤلاء الواهمين إلى درجة تفصلهم عن المجتمع انفصالا شديدا فيصبحون من المجانين . أعرف شخصا كان يشغل خادما في عيادة طبيب أسنان وكان يختلف في الليل إلى جلسة جماعة من الأدباء . في الحى اللاتيني — أعنى سيدنا الحسين — وكان القوم يتندرون عليه والتقط منهم بعض العبارات التي ينطقون بها وحفظها ، فاعتقد في نفسه أنه أديب وكاتب وسياسي وخطيب ، وقوى في نفسه ، هذا الوهم على مر السنين حتى أصبح عقيدة راسخة وأصيب بالجنون . وأعرف شخصا آخر يتوهم أنه وزير وكلما سقطت وزارة سمى ليكون عضوا في الوزارة الجديدة مع أنه أشبه بالأميين .

هؤلاء الحالمون أو الواهمون مصيرهم أحد أمرين . إما الجنون ، وإما الاصطدام بالحقيقة الواقعة فيعودون إلى الصواب . ولكنهم ينطوون على أنفسهم ويعيشون في عزلة .

وكل واحد منا تمر به هذه اللحظات التي يتصور فيها أنه أصبح غنيا أو أميرا فيحقق رغباته في ما نسميه بأحلام اليقظة ، ولكن الواحد مناسرا ما يرجع إلى الواقع ويشوب إلى الرشد .

ولكن أبرز صفات الواهين هي محاولتهم أن يخفتوا صوت كل عاطفة وعندئذ يقوى فيهم جانب الابتكار القائم على الخيال ، ولذلك كان أغلب المخترعين والمكتشفين من رجال العلم من هؤلاء الواهين .

فالابتكار كأنه تصرف طبيعي لا نعدم الناحية العاطفية . وكلما ضغط الإنسان الانفعالات والعواطف كلما برزت ناحية الذكاء ، بشرط ألا يكون من الذكاء المريض . وما نلاحظه على هذا الصنف من الناس أنهم يهربون من التحليل النفساني لأن اتصالاتهم بالطبيب المعالج تقتضي أن يفضى المريض بمكنونات نفسه . ولما كان المريض يعشق العزلة ويحب الحياة الخفية التي لا يُطلع عليها أحدا ، فنال العسير أن يخضع هذا الشخص للتحليل . إلا أن مثل هذا الشخص يحسن تحليل نفسه ويبرع في مراقبتها ، ولذلك يصوغ لنفسه لون الحياة الذي يروقه .

وقد ينتهي الأمر أو كثيرا ما ينتهي الأمر بالواهين إلى أن يرتضى أحدهم في أحضان الدين ، ويسلك طريق الصوفية . فالصوفي يقطع العلائق بالخلق ليتصل بالحق في هذا العالم المنعزل الذي يحب أن يكون فيه وحيدا .

وفي ذلك يقول ابن الفارض في قصيدته المشهورة :

وعمرت أوقاتي بورد لوارد

وصمت لسمت واعتكاف لحرمة

وبنت عن الأوطان هجران قاطع

مواصلة الإخوان واخترت عزلي

وجودت في التجريد عزمي تزهدا

وآثرت في نسكي استجابة دعوتي

ثمن الناس

وهل يمكن أن يكون للإنسان ثمن يقوم به ، ويبيع ويشترى كما تباع الأغنام ؟
قد يبدو هذا الخاطر اليوم غريبا غير مألوف ، وقد تقشعر النفس من التفكير فيه ، أعنى أن نجعل من الإنسان سلعة متداولة ، فإذا قلبنا النظر في التاريخ منذ أقدم العصور إلى عهد قريب جدا ، أى في القرن التاسع عشر ، لوجدنا أسواق الرقيق في أغلب الدول شائعة ، تجدها كل ما تطلب من أصناف الإنسان ، الذكور والإناث ، البيض والسود ، الصناع والزراع ، وما إلى ذلك . ولقد خدمنى وأنا طفل عبد أسود كان جدى يملكه ، أعنى أنه اشتراه بالمال . ولما وقع الجفاء بين الممتنى وكافور الإخشيدى هجاء بالآيات المشهورة التى جاء فيها .

لا تشتري العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأجاس مناكيد

وكان المماليك البحرية والبرجية الذين حكموا مصر زمنا طويلا حتى قضى عليهم محمد على باشا يشترون بالمال وهم فى سن صغيرة ، ثم يعتقون بعد ذلك ، ويرتقون حتى يبلغوا درجة البسكوات والأمراء .

والسود فى أمريكا من نسل العبيد الذين كان النخاسة يجلبونهم من أواسط إفريقيا ثم يبيعونهم للأمريكان .

هذا كله تاريخ معروف يتبين منه أن الإنسان إلى عهد قريب كان يقوم بالمال ، وتختلف قيمة شخص عن آخر بمقدار منافعه . فالقيمة الجميلة أعلى من القبيحة ، فإذا كانت متعلمة كانت أكثر ثمنا ، وإذا أضافت إلى ذلك العلم بالشعر والعرف على الآلات الموسيقية تهافت عليها المشترون ودفعوا لصاحبها آلاف الدنانير .

والمال معيار ثابت ، أو هو أفضل الموازين المعروفة لتقويم الأشياء . فإذا كنا قد عدلنا عن شراء الناس ، فبأى ميزان جديد يمكن أن نقدرهم ؟ وهل يمكن

تقدير الإنسان ؟ وهل المال مقياس صالح ؟ ولماذا عدل عنه ؟

قالوا لا يجوز أن يباع الإنسان ويشترى كما تفعل في السلع ، لأن في ذلك إهدارا للإنسانية ونزولا بالكرامة وفقدانا للحرية . وتاريخ الإنسانية صراع في سبيل الحصول على الحرية والمساواة ، وقد مضى عهد الاستعباد . فلما تحققت المساواة واستتب الديمقراطية حاربوا الرق والاستعباد وأعلنت حقوق الإنسان واصطلحت الدول على منع الرق وشرائه وبيعه في أى دولة من دول العالم . أما الرقيق الأبيض فهذه سوق سوداء تعمل الحكومات على ضبطها والضرب على أيدي المشتغلين بها .

هذا من الناحية النظرية ، أما في الواقع فلا يزال الناس يقولون بالمال . كل ما في الأمر أن عقد البيع أصبح عقد إيجار . فأنت حين تنضج وتتهيا للعمل لا تباع نفسك أولا يشترىك صاحب العمل بحيث تصبح ملكا له يتصرف فيك كيف شاء ، كما كان من قبل ، وإنما ينظر صاحب العمل ويزن قيمتك ، وهذه القيمة تساوى المنفعة أو المنافع التي سوف يحصل عليها منك ، ثم يقول سوف أعطيك أجرا يوميا أو أسبوعيا أو مشاهرة بمبلغ كذا . أليس معنى ذلك أنك تقدر بالمال ؟ وأنتك ترفض إذا شعرت بضالة الأجر ، وتترك صاحب هذا العمل إذا وجدت من يدفع لك أجرا أعلى ؟

وسواء أ كنت ملك نفسك أو ملك صاحب العمل الذي تشتغل عنده فالنتيجة واحدة لأنك في الحالين توزن بميزان المال .

والأمر في الصناعات والفلاحين كالأمر في المفكرين والفنانين .

فإن قلت ليس هذا ثمن الشخص بل هو ثمن علمه وقيمة صنعته ، قلنا ولاى شيء كان الناس يباعون ، ألم يكن لأعمالهم التي يؤدونها ؟ وليس الشخص إلا مجموعة صناعاته وأعماله .

وقال صاحبي ، وقد عرضت عليه هذه الآراء ، فكبرت في نفسه أن يرى الإنسان

كالسلعة ، هذا تفكير مادي ، أو « أمريكياني » ، فقد ظهرت بدعة غريبة يحاول أصحابها تقدير كل شيء بالمال أو بالمادة ، فيأتى السائح إلى القاهرة ويتفرج على أهرام الجيزة ثم يقول كم تساوى الأهرام ، وكم تتكلف فى البناء ؟ مع أن للأهرامات قيمة تاريخية لا يمكن أن تورن بالمال . فليس الخطأ فى التقدير بالزيادة أو النقصان ، بل الخطأ فى قياس مالا يمكن أن يقاس .

قلت له أنت واهم يا صاحبي ، لأن الواقع المشاهد أن الناس يقدرّون بميزان من المال ، ولك أن تزعم أن الإنسان لا يمكن قياسه لأنه ليس شيئاً مادياً ، ولكن زعمك هذا لا يغير من الواقع شيئاً .

قال : فإذا سلمنا بهذا المبدأ فكيف يمكن أن تزن عظماء الرجال مثل مصطفى كمال ونابليون من رجال السياسة ، وشكسبير وشوقي من أعلام الأدب . وكيف يمكن أن تزن الرجال الذين وهبوا أنفسهم للخير مثل رجال الدين ، أو سقراط الذى لم يتناول فى حياته أجراً على التعليم ؟ وكيف تطمئن إلى مقياس المال وهو مقياس غير ثابت ؟

وهذه اعتراضات لها وجاهاتها ، وتبحث على التفكير فى هذا العالم المادى ، عالم اليوم ، وهل حقاً هو أفضل العوالم ، وهل العالم الروحاني والمثالي لم يبق لها وجود ؟ أما أن المال مقياس غير ثابت فهذا صحيح . فنحن نرى النقد ينهار ويفقد قيمته ، وليس الذهب أو أى عملة إلا اصطلاح بين الناس لتقويم الأشياء ، أما الأصل فهو الانتاج أو العمل . وأعمال الانسان منها اقتصادية كالنسيج والبناء ومنها معنوية روحية كالشرع والمفكر والأديب والفنان . ولا نريد أن ندخل فى مناقشة جدلية أيهما أرفع منزلة الأشياء المادية أم الروحية فهذه مناظرات كلامية لا تهدف إلى الحق بمقدار ما تهدف إلى اليأس . والتمحيق أن العالم مركب من عنصرين لاغنى لأحدهما عن صاحبه ، العنصر المادى والعنصر الروحاني ، بل الإنسان مركب من عنصرين النفس والبدن وكلاهما ضرورى فى وجود الشخص

فإذا كانت المذاهب المادية تنظر إلى البدن ، فالمذاهب الروحية والمثالية تغفل الجسم ولا تحسب إلا حساب النفس . وكلا المذهبين مخطيء في تحيزه ومغالاته . وهل يزن الزوج زوجته بميزان واحد هو جمال الوجه ورشاقة الجسم ونضارة الشباب ووفرة الثروة ، أم يدخل في حسابه إلى جانب ذلك درجة العلم والثقافة ، وطيب العنصر وحسن الخلق وخفة الروح ، ثم كيف تزن خفة الروح وثقل الظل ؟ بل هناك أمر آخر خلاف المال والعلم هو السلطان والمنزلة الاجتماعية . فهذا وزير خطير يتربع في الدولة منزلة عظيمة ، ويبذل لها من عقله ووقته ما ينفعها في حاضرها ومستقبلها ، وقد لا يملك إلا مرتبه ، وهو مرتب ضئيل إذا قسناه إلى جانب تاجر من أغنياء الحرب أو مزارع أثري من بيع القطن . ولنفرض أننا عرضنا الوزير الخطير وغنى الحرب في مزاد نبيعهما فيه ، فكم يساوى ثمن كل منهما وكيف يقدر الثمن .

وقد يموت مفكر أو مصلح أو فيلسوف أو فنان فقيراً خاملاً مغموراً لأن أهل زمانه لم يرضوا عنه ، أو لم يفهموه حق الفهم ، فإذا به يخلد بعدموته وتنصب له التماثيل ، وينفض عنه غبار النسيان ويصبح علماً من أعلام التاريخ . فالزعم بأن المال هو المقياس الوحيد للرجال زعم فاسد .

واسكن الناس يفتنون بهريق الذهب ، ويرون أنه أداة سحرية يحصلون بها على كل ما يطلبون ، فأصبح همهم الوحيد جمع المال واقتنائه ، وخيل إليهم أن قيمة الإنسان فيما عنده من مال ، وهذا هو سر إقبال الناس على جمع المال وتكديسه فأصبحوا من أهل الدنيا لا من أهل الدين . وهذا المعنى هو الذي دفع فريقاً من المسلمين إلى السخط على عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنه ابتنى الدور والقصور وأغدق من أموال الدولة على أقربائه مما لم يعهد عن سلفيه أبي بكر وعمر المتجردين عن الدنيا . إنهم كانوا يريدون الخليفة مجرداً من المادة بريئاً من شوائبها يعمل للآخرة فقط . رحم الله الصحابة الأولين فقد كانوا ممن لا يقومون بمال ، وركعت الفرس والروم تحت أقدامهم لأنهم وهبوا أنفسهم للدين .

وهذا هو الثمن الصحيح للناس عندما يقدمون الحساب يوم الحساب .
واسكن عالم اليوم عالم مغرق في المادية مع الأسف الشديد .

في الصداقة والصديق

وقع الخضر في كشكوله من (الرسالة) يقول إنه لاحظ أنني كلما أخرجت كتاباً كتب عنه الأستاذ عبد الغنى حسن ، وأن العكس صحيح ، يريد أنه كلما أخرج كتاباً أو ديواناً أكتب عنه ، والتوقيع على إنجازهم وإن كان صحيحاً يحمل معنى التعجب ، أو هو خبر ينطوى على استفهام ، وإشارة تحتاج إلى تفسير وبيان .
وبيان هذا التبادل أنه دليل على الصداقة أو هو آية الأخوة . ولكتاب التوقيع أن يعجب في زمن أصبحت فيه الصداقة أندر من السكرتير الأحمر ، فإذا رأى أحد شخصين قد ائتلف قلباهما على المحبة ، وقامت العلاقة بينهما على المودة ، لفت ذلك نظره لغرابته وشذوذه ، وبعده عن المؤلف : وانفراده من المتعارف الشائع المعروف . ولقد حكى القدماء من الحكماء أن المستحيلات ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفي . فإذا كان الخلان الأوفياء قد عز وجودهم في قديم الزمان فوجودهم أعز اليوم وأندر ، مع فساد الزمان وانتشار موجه المادية ، والتمسك بأسباب الدنيا ومتاعها وزينتها ومنافعها .

فإذا عثر الإنسان على الصديق كان كالذي اهتدى إلى المستحيل ، وعثر على كنز ثمين . وقد قوموا الناس بالمال ، فوزنوا مہراجا الهند ، وقدموا المهور إلى الحسان ، ولكن الصديق الحق إذا أخلص وبرى عن المصلحة ، كان أثنى من الذهب فلا يقومه مال ولو عُدَّ بالملايين . وللعامة من الناس تشبيه مادی طریف ، قالوا : الناس أجناس ، ذهب وفضة ونحاس ، أما الإنسان الذي كالذهب فكما عبر سنوات الزمان زاد جوده ولم تنقص نفاسته ، ولم يذهب بريقه أو ينطفئ رونقه . وأما الإنسان الذي كالنحاس فإنه يخدعك بمنظره وهو المعدن الخسيس تطلبه فلا يلبث

أن يصدأ ، وتجلوه فيأبى الجلاء ويعود إلى الانطفاء ، فإذا اتخذت من هذا الصنف صديقاً خدعك بريقه وغشك بمنظوره . باطنه على خلاف ظاهره ، وباطنه هو الذى يدفع إلى الانطفاء والصدأ ، وهذا هو جوهره لا يستطيع عنه حولا ، أو تحيظه لا يستطيع لها تبديلا ، ولذلك كان العشور على الصديق الصادق عسير المتال لقلة الذهب وكثرة النحاس ، والناس كذلك منهم النفيس ومنهم الخسيس .

والصديق الذى كالذهب تعز بصحبته ، وينفعك فى محنتك ، ويُقبل عليك فى وقت شدتك ، ثم تأمن إلى جانبه وتركن إلى معونته ، وتُفنى إليه بحملة نفسك وأنت مطمئن إلى حفظ السر وحمل الأمانة ، فإذا برئت النفوس من المنافع ، وتخلصت من الأطماع وتجردت عن الأهواء ثم آثرت الإيثار اتصلت النفوس واتلفت الأرواح ، وهذه هى الصداقة فى أعلى مراتبها ، وأفضل صورها ، وما ينبغى أن تكون عليه .

والصداقة فضيلة تأمر بها الأخلاق وتحث على توثيقها . وأفضل الأخلاق ما طلب صاحبها الفضائل لذاتها ، ولأنها واجبة فى نفسها كما ذهب إلى ذلك كانط الفيلسوف الألماني . فنحن نعمل الفضائل طلبا للمنفعة أو اللذة أو السعادة ، وبذلك تخضع الفضيلة لغاية أخرى فينصرف المرء إلى تحقيق هذه الغاية ولو امتنع ظهر الرذائل وصورها فى صورة الفضائل . لذلك ينبغى أن تطلب الصداقة لذاتها ، وحينئذ يحس المرء بلذتها .

والصداقة من أقوى الروابط التى يقوم عليها دعامة المجتمع ، فإذا شاعت فى أمة تماسكت ثم قويت لتماسكها ، ثم علا شأنها لقوتها ، فتصدرت سائر الأمم لعلو شأنها والاعتراف بمنزلتها . وكان هذا هو حال الأمة الإسلامية فى بدء نشأتها . وأنت تعلم أن الدعوة الإسلامية قامت على اثنين من الرجال ، النبي عليه السلام وأبى بكر الذى سمي لصداقته وفرط تصديقه بالصديق دلالة على المبالغة ، فقالوا : أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وإذا اطلعت على سير الرجال من أهل الإسلام فى عزه

وهنؤوانه ، وفى أوجه وعله وسلطانة ، يوم أن كانت أوربا تعيش على علوم الشرق وتعرف من عمراته ، رأيت أن الروابط بينهم قامت على الصداقة وعلى التفانى والوفاء ، وعلى الإخلاص والإيثار ، والإيثار أعلى مراتب الصداقات . حكى كتب الهنداء أن عشرة من المسلمين وقعوا جرحى فى قتال إحدى الغزوات ، وكانت مع أحدهم شربة ماء لا تكفى إلا واحداً لتهبه الحياة ، فأثر بها صاحبه ومات ، وأثر بها الثانى صاحبه ومات ، وهكذا حتى مات الجميع .

ونحن نرى الجماعة تحتاج إلى ترابط يوثق ما بين أفرادها ، وليست هذه الروابط مادية يمكن أن ترى ، فليس هناك حبل يربط بين فلان وفلان . ولو كانت الروابط حبلا لتقطعت وبقيت الصداقات الصادقة لأنها أوثق ، ثم لا تبلى مع مرور الزمان بل تقوى على الأيام .

ومن المشاهد أن الشرق منحل الأواصر ، كثير التناذب ، يشيع الحسد بين الناس وتشتد العداوات الشخصية حتى لتشغل أوقات الناس وتصرفهم عن المصالح العامة . وهذه هى أخلاق الجاهلية الأولى حتى جاء الإسلام ليحل محلها المودة والسلام . والصداقة والعداوة مما ينشأ مع الطفولة ، ويبت بالتربية ، ويعالج بالتهذيب . والصداقة التى ترتفع إلى منزلة الآخرة تظهر فى الأسرة بين الأشقاء ، وتظهر فى المدرسة بين الأنداد ، ولسكننا فى مصر قد أهملنا التربية فتركنا الحبل على الغارب ، أو سلطنا الأمر لله ، مع أن الله قد أودع فىنا العقل للتمييز . وقد أثبت مذهب التحليل النفسانى أن الأحوال النفسية التى تصاحب الناس فى كبرهم تمتد جذورها إلى زمن الطفولة الأولى . والصغار فى بيوتنا فى شقاء لجهل الآباء والأمهات بأصول التربية وأسرار النفس ، فهم يمنعون الطفل من اللعب ويحبسونه فى البيت ويكثر من ضربه وإيذائه وانهاره فيدشأ على الحقد والبغضاء . ثم يغرون الأخ بأخيه ، ويفضلون الشقيق على شقيقه ، فيظهر فى أنفسهم الحسد ، وهو شر ما يبلى به الإنسان ، وهو آفة الصداقة .

والمدرسة المصرية دار تحضر الطالب للامتحان والحصول على الإجازة، وليست المجتمع المثالي الصالح الذي يؤلف بين القلوب ، ويقوم فيه التعليم على المشاركة والتعاون بين التلاميذ. وقد سمعنا عن طلبة يأبون إعطاء مذكراتهم لزملائهم نفاسة وحداً وانفراداً بالامتياز ، فكيف ترتقب من المدرسة أن تنشئ جيلاً من الأصدقاء وهذه حالتها. وكيف تزعم أن الروابط بين أفراد الشعب وثيقة مع انعدام الصداقات ؟

فهرس

على الدرب

(٥) لمحة . (٧) النظر . (١١) السمع . (١٤) الاتصال . (١٧) المذاق .
(٢١) الطريق . (٢٥) السوق .

مع الركب

(٣١) اللهو . (٣٤) الثقة . (٣٨) التقدم . (٤١) الاضراب . (٤٥) اللائق
والواجب . (٤٩) التربية الصحيحة .

من الغور

(٥٥) الضالة المنشودة . (٥٨) النفس والروح . (٦٢) انتقال الروح .
(٦٦) الاتصال الروحي . (٦٩) الأحلام . (٧٤) الرؤيا الصادقة

جواهر

(٨٠) الكلمة . (٨١) القراءة . (٨٤) الأدب المكشوف . (٨٨) الذوق والمجتمع

شفاء

(٩٤) التحليل النفساني . (٩٧) الغمز واللمز . (١٠٠) الظاهر والباطن
(١٠٣) تخاف من العرائس . (١٠٧) كيف تنسى . (١١٢) الانشراح .

جوانح ونوازع

(١١٨) الطموح . (١٢٣) الغرور . (١٢٨) الحسد . (١٣٣) المال . (٣٨) البخل

معادن

(١٤٤) أصناف الناس : المسالمون . (١٤٨) المعتدون . (١٥٢) الواهمون .
(١٥٦) ثمن الناس . (١٦٠) في الصداقة والصديق .